ديديه دينانكس

اغتيالات.. للذكرى

ترجمة: راوية صادق

دار شرقيات للنشر التوزيع

اغتيالات للذكرى

عمل ديديه ديناكس (١٩٤٩- في صباه في مطبعة، ثم أصبح مشرفاً ثقافياً عاماً لضواحي باريس الشمالية. كتب «اغتيالات للذكرى» عام ١٩٨٤، حيث تعرض فيها لحادثة حقيقية أهملتها السلطة ووسائل الإعلام، المذبحة التي ارتكبها البوليس الباريسي ضد أربعمائة فرنسي -مسلم في اكتوبر ١٩٦٦ . ويبدو الكتاب كلعبة مرايا تصاحبها المراوحات بين الواقع والخيال. وقد فازت «اغتيالات للذكرى» بجائزة «ڤايان كوتورييه» و«الجائزة لكبرى» في الأدب البوليسي، وأخرجها للتلفيزيون الفرنسي لوران هيديمان.

ومن أشهر أعمال ديناكس الأخرى «عملاق لم يكتمل "Le Géant Inachevé" ١٩٨٤، و«نهاية النهايات» "Le der des ders" ١٩٨٤، و«متروبوليس» "Métropolice" ١٩٨٥، و«الجلاد وقرينه» "Le Bourreau et son double" و«ضوء أسود» "Lumière noire" ١٩٨٧.

اغتيالات.. للذكرى

اغتيالات للذكرى
ديديه دينانكس
ترجمة: راوية صادق
Meurtes pour mémoire
Didier Daeninckx
Editions Gallimard

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ شارع محمد صدقي، من هدى شعراوي
رقم بريدي ١١١١١
باب اللوق - القاهرة. ت: ٣٩٠٢٩١٣
س . ت: ٢٦٩١٩٨

تصميم الغلاف والإشراف الفني: محيي الدين اللباد

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
البعثة الفرنسية
للابحاث والتعاون
قسم الترجمة
القاهرة

رقم الايداع ١٦٩٩ / ٩٥
الترقيم الدولي ISBN 977 - 5406 - 27-7

عمل ديديه دينانكس[1] -المولود عام ١٩٤٩- كعامل مطبعه في صباه، ثم أصبح مشرفاً ثقافياً في ضواحي باريس الشمالية. وفي عام ١٩٨٤، كتب «اغتيالات للذكرى[2]» التي تعرض لواقعة حقيقية في تاريخ فرنسا، أهملتها السلطة ووسائل الإعلام: تلك المذبحة التي ارتكبها البوليس الباريسي ضد أربعمائة فرنسي -مسلم[3] في أكتوبر ١٩٦١. ويبدو الكتاب كلعبة مرايا تصاحبها المراوحات بين الواقع والخيال. وقد فازت «اغتيالات للذكرى» بجائزة «ڤايان كوتوريه» و «الجائزة الكبرى» في الأدب البوليسي، وأخرجها للتليفزيون لوران هينيمان.

ومن أشهر أعمال المؤلف «اغتيالات .. للذكرى» Meurtes Pour Mémoire (١٩٨٤)، «عملاق لم يكتمل» Le Geant Inachevé١٩٨٤)، «نهاية النهايات» Le Der Des Ders(١٩٨٤)، «مترو بوليس» Mé- tropolicc (١٩٨٥)، «الجلاد وقرينه» Le Bourreau ct Son Doublc و«ضوء أسود» Lumiérc Noire(١٩٨٧)

❖

(١) مقدمة الناشر الفرنسي

(٢) للذكرى Pour mémoire تعني أيضا للعلم، أو للحفظ، كما في سجلات البوليس. وفضلنا اختيار الإيحاء الشعري العام

(٣) أي الجزائريين

عندما ننسى الماضي
نحكم على أنفسنا بأن نحياه من جديد

❖

إلى جوسلين وأوريلي

الفصل الأول

سعيد ميلاش

أخذ المطر يتساقط حوالي الساعة الرابعة. اقترب سعيد ميلاش من حوض البنزين ليزيل الحبر الأزرق الذي لطّخ يديه. وكان المحصل -وهو شاب أصهب- قد أخذ أمر التعبئة وحل محله على طرف مطبعة الهايدلبرج. اكتفى ريمون- الذي يدير الآلة- بإبطاء سرعة الطباعة. وها هو يعود -الآن- إلى السرعة الأولية، والملصقات تتدكس -بانتظام- فوق الطاولة ؛ يضبط إيقاعها صوت جاف تصدره المشابك وهي تتفتح. ومن حين لآخر، يلتقط ريمون ورقة، يطويها ويراجع وضع علامات الطبع، ثم يضغط بإبهامه فوق اللون المُوَحّد، ليتأكد من جودة أداة التحبير. راقبه سعيد للحظة، ثم قرر أن يطلب منه إحدى نسخ البروفة. ارتدى ملابسه بسرعة، وخرج من الورشة. مدَّ سعيد يده بتصريح الخروج الذي حصل عليه في الصباح، متذرعًا بمرض أحد أقاربه. ثلاثة أعذار في أقل من عشرة أيام! آن أوان وضع حد لهذا الأمر. أخذ الحارس الورقة ووضعها في جيبه:

- يبدو أنك تختلقها يا سعيد. وإذا استمر الحال هكذا، فسترسل بتصاريح الخروج بالبريد، ولن تحتاج إلى المجيء هنا.

أجبر نفسه على الابتسام. ظلت علاقاته بزملائه في العمل وديّة لأنه بذل قصارى جهده في أن يبعد عن ذهنه تعليقاتهم التي لا تنتهي.

كان الوناس ينتظره بعيداً. عند تقاطع ممَر ألبينيل. لذا، فعليه أن يعبر قناة سان -دني، ويسير بمحاذاة الأكواخ المصنوعة من الخشب والصفيح التي احتلت حافة القناة. بدا الجسر محدباً. ومع صحو الجو، يمكن رؤية كنيسة «القلب المُقَدّس» بكاملها خلف مدفأة «سان -جوبان» الهائلة المبنية من القرميد الأحمر. أبطأ خطاه وأخذ يتسلى بتحريك رأسه ليضع كنيسة «البازيليك» فوق تلال الكبريت المكدّسة داخل سور المصنع. ولكي ينجح، انحنى دون أن يبالي بدهشة المارة. وتحت، على الرصيف، كانت رافعة تلتقط- من داخل قارب نهري- ألواحاً معدنية يحملها ونش شوكة «فنويك» -على الفور- نحو عنابر «بروزيلور».

اجتاز شارع أدريان أنياس ليغوص في التقسيم التربيعي لمدينة الصفيح، حيث بعض الفرنسيين لازالوا يشغلون البيوت الواقعة في أطرافها. كانت سيدتان عجوزان -بيديهما مقاطف كبيرة من نسيج مدهون بالشمع -تناقشان- بصوت عال- المزايا المقارنة لزيت «دولسين» والزبد المرجرين «بلانتا». بدا

المقهى/البقالة خاوياً إلا من صبي يلعب الفليبير[1].

وتتالت المقاهي، والمطاعم، والفنادق، -«عند روزا»، «عند ماريوس»، «قهوة العدالة»، «مشهيات»، «بار الجاز». وكل منها أكثر بؤساً من الآخر. فمع مرور الوقت، كان الملاّك قد باعوا متاجرهم إلى جزائريين احتفظوا بلافتاتها القديمة. والاستثناء الوحيد هو الـ «دجرجورا» ؛ آخر مطعم عربي قبل الحي الأسباني. دفع سعيد الباب الزجاجي، وتقدم نحو الصالة الفسيحة، والرائحة المألوفة -خليط من النشارة والرطوبة- تنبعث من الأرض الخشبية المطهّرة بالكلور ؛ وعشرة رجال يجلسون على مقاعد تحيط بمدفأة فحم، يراقبون لاعبي الدومينو. اتكأ سعيد على البار دون أن يلتفت إليه أحد:

-هل وصل الوناس؟

أشار صاحب المقهى أن لا، وقدّم له القهوة.

وعبر الزجاج، كان يمكن لسعيد رؤية بناءٍ ضخمٍ -أهم بناء في الحي، إذا ما استثنينا المصانع. وحده البرج، بأجراسه الثلاثة، كان يدل على أنه ليس ورشة أخرى. لم يسبق له عبور مدخل إرسالية «سانت -تريزا دي جزيه» من قبل إلا مرة واحدة. مدعوا إلى حفل زفاف زميل له في العمل من قطالونيا. طغت أصوات قرقعات الدومينو -فوق المائدة الفورميكا- على جرس باب الدخول:

-أهلاً سعيد. تأخرت عليك. لم يكن صاحب العمل يريد أن أخرج.

استدار سعيد ووضع يده على كتف الوناس.

-المهم أنك هنا. فلنذهب إلى المكتب. لم يبق لنا إلا ساعة.

أصبحا الآن في غرفة صغيرة جداً تزدحم بالصناديق والزجاجات. وعلى المائدة، أكداس من الأوراق والفواتير تحيط بتليفون أسود.

أنزل سعيد إعلاناً لشركة «بيكاردي» للنبيذ. أزاح الإطار بحرص شديد، وسحب ورقة مخبأة بين الكرتون والصورة. كان الوناس قد جلس على المكتب.

- أرأيت؟ لن يستطيع «ريمز» البقاء في الصدارة. أنا واثق أنهم سيسحقون سحقاً قبل نهاية الدوري، ثلاثة / واحد لصالح «صدان»! مباراة أخرى كهذه ويسبقهم «لينز».

- هناك أمور أخرى أكثر أهمية من الحديث عن كرة القدم. اتصل بزعماء المجموعة الخمسة عشر. قل لهم «ركس» فقط، وسيفهمون. وفي هذه الأثناء، سأذهب لأرى المسئولين عن القطاع إلحق

(1) Flipper لعبة أمريكية كهربائية تشبه البلياردو، ولكن الكُرة تقذف لأعلى تحت غطاء زجاجي.

بي أمام «راديو بيجمي» بالسيارة، بعد ثلاثة أرباع ساعة من الآن. لا تنس إعادة القائمة مكانها.

ركن سعيد والوناس السيارة «كاتر شيفوه(★)». في شارع ماكدونالد بحي لاڤيّلات، بالضبط بعد موقف الأتوبيسات الباريسية، ثم توجها نحو فتحة المترو. كان الهواء البارد يبعثر الأوراق المصفرّة. ولم يستغرق المطر الشديد والحاد إلا لحظات لينفذ في قماش سترتيهما النحيل. بدت ثكنة الحرس المتنقل هادئة، رغم امتلاء موقف العربات -تماماً- بناقلات «البرلييه» الزرقاء، التابعة لقوات الأمن الجمهورية.

غادر قطار المحطة. تركهما الكمساري ينتظران قليلاً قبل أن يثقب تذكرتيهما. توجه الوناس نحو خريطة شبكة الطرق، وأشار بإصبعه إلى محطة بون نوڤيل.

- نُبدّل المترو في «جار دي لاست» ثم في «ستراسبورج سان -دني»، أم نأخذ خط «شوسيه دانتان» مباشرة؟

- فلنأخذ «شوسيه دانتان»، يبدو أطول لكننا لن نبدل الخط إلا مرة واحدة، وسنصل أسرع.

راح المترو -في كل محطة- يمتلئ بالجزائريين، وفي محطة ستالينجراد، ازدحم تماماً. كان الأوربيون القليلون يتبادلون نظرات قلقة، فيما سعيد يبتسم. تذكّر -فجأة- الملصق الذي طلبه من ريمون قبل مغادرة المطبعة. أخرجه من جيبه، وفرده بحرص قبل عرضه على الوناس:

- تفرج على ما أطبعه على آلتي منذ يومين! فوق صورة «جياني اسبوزيتو» و «بتي شنيدر»، كان هناك نص قصير عن أول فيلم لجاك ريڤيت، وقد امتد عنوانه -في أحرف زرقاء، بعرض الورقة: «باريس ملكنا».

- الوناس؛ تَخيلّ...، باريس ملكنا.

- لمدة ليلة. بالنسبة لي، سأترك باريس حقا وكل ما تبقى من أجل قرية صغيرة في «الهدنة».

- أظن أنني أعرف اسمها...

- إذن قله!

تجهّم سعيد.

-لا تقلق. إذا كنا هنا هذه الليلة، فذلك ليحق لنا أن نشيخ في جبل رفاعة.

في الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة من الثلاثاء ١٧ أكتوبر ١٩٦١، كان سعيد ميلاش

(★) Quare Cheveaux طراز للسيارة رينو في الستينيات.

والوناس توجور يصعدان درجات محطة مترو بون نوفيل، وسينما «ركس» الفخمة تعرض «مدافع ناڤارون»، ومئات الباريسيين ينتظرون —بنظام— حفل الساعة الثامنة مساءً.

روجيه تيرو

لم تكن «العصور الوسطى» —فقط— هي التي تثقل على الفصل وتفرض عليه هذه الأجواء الفاترة. فبدايات البرد الأولى، والمطر الذي يظلم المبنى القديم لهما فضل في ذلك، بالإضافة إلى وجبة مطعم الليسيه الدسمة. تساءل روجيه تيرو بقلق —في بداية الدرس، عما إذا كان عليه البحث عن سبب هذا الفتور في طريقة تدريسه الخاصة. لقد شغف —منذ حمل زوجته— بتاريخ الطفولة، وأدخل —في شرحه— عدة ملاحظات حول هذا الموضوع. فمن ذا الذي اهتم —في وقت ما —بوضع الطفل الرضيع في القرن الثالث عشر؟ لا أحد! ومع ذلك، يبدو له بحثاً كهذا لا يقل شأناً عن الأبحاث التي أجراها عشرات المتخصصين الأفاضل حول أحداث حاسمة كتداول النقود البرونزية في حوض «الأكيتان»، أو تطور البلطة في «بواتو» الواطئة. سعل واستأنف قائلاً:

— ... بعد فترة الرضاعة الطبيعية (لم يجرؤ على القول من «الثدي» أمام تلاميذه) ؛ لم يكن نادراً —في القرن الثالث عشر— رؤية المرضعة وهي تمضغ الطعام قبل دسّه في فم الطفل، ما إن تظهر له أسنان.

انتبه الاثنان وعشرون تلميذاً مرةً واحدة، وأظهروا تقززهم —بجلبة— إزاء سلوكٍ كريه كهذا. تركهم روجيه تيرو يهدأون، ثم قرع السبورة بطرف مسطرته:

— تعال يا هيبير. اصعد إلى المنصة، واكتب عناوين الأعمال الآتية والتي عليكم جميعاً —وأشدد على «جميعاً»— مراجعتها من مكتبة الليسيه: أولاً: «عن ملكية الأشياء» لبارتيلمي الانجليزي، الفصل السادس، وسيكون مفيداً لكم لتألفوا اللغة اللاتينية أكثر. ثانياً: «الاعترافات» لجيلبير دي نوجان. انتهى الدرس. نلتقي يوم الجمعة، الساعة الثالثة بعد الظهر.

خلت الحجرة من الجميع، إلا من صبي يتلقى درساً خصوصياً في اللغة اللاتينية، مرتين في الأسبوع، ويقيم في ميدان القاهرة. وقد اعتادا أن يصعدا —معاً— ضاحية بواسونيير، وهما يدردشان حول أحداث النهار. وقبل الوصول إلى البولڤار، تذرع روجيه تيرو بضرورة شراء أشياء من أحد المحلات ليترك الصبي. دلف إلى شارع بيرجير، ودار بسرعة حول مجموعة البيوت التي تضم مبنى صحيفة «لومانيتيه» فوجد نفسه في البولڤار. أخذ يرقب تلميذه —على بعد مائتي متر— وهو يعبر الطريق جرياً بين سيل السيارات. سار في هذا الاتجاه وتوقف أمام واجهة «ميدي —مينوي». انسل إلى البهو خلسة، دفع ثمن مقعده، ودخل القاعة السوداء. مدّ يده بالتذكرة إلى عاملة السينما ومعها عملة فئة العشرين سنتيم. كان

الفيلم قد بدأ، وعليه انتظار بداية العرض التالي ليعرف عنوانه.

كل أسبوع، يوم الثلاثاء أو الاربعاء، كانت هاتان الساعتان من الأحلام تعوضان الجهد الكبير الذي يبذله ليقفز بخطواته قفزاً ويجلس في مكان الضياع هذا. حتى لا يكون شبيهاً بهم!

تخيّل -دون مشقة- سخط زملائه عندما يعلمون أن الأستاذ تيرو -تصوروا، مدرس التاريخ واللغة اللاتينية- هذا الشاب الذي تنتظر زوجته طفلاً، يتردد على دور عرض تقدم أفلاماً لا تليق بعقلية علمية. كيف يفسر لهم شغفه بكل ما هو خياليّ؟ لا أحد منهم قرأ لوفير كرافت! ربما يعرفون -بالكاد- إدجار بو. فما بالك ببوريس كارلوف ودونا لي في «محصّل الجثث». استغرق الفيلم ساعة وربعاً بالضبط. خرج من القاعة وفي ذهنه اسم المخرج. وايز، روبرت وايز، مخرج سيكون له شأن.

تردد بين بار «تبغ الصباح» وكافتيريا مبنى «لو مانيتيه» بالدور الأرضي ؛ حيث يمكنك أن تأخذ قهوة وتحملها في صينية إلى المائدة. وبينما ترتشف السائل الساخن، تتسلى بالتعرف على كبار كتاب الجريدة، وأشهر وجوه الحزب الشيوعي عند مرورهم. توريز، ديكلو، حتى آراجوان، كانوا يأتون هنا ليتناولوا وجبة بين اجتماعين، أو لينتظروا وصول مقالاتهم إلى المطبعة.

تأخر كثيراً -لسوء الحظ- هذا المساء، فقنع بوجبة من محل تبغ. كانت جريدة «لوموند» تتناول الصعوبات التي تواجه الاتفاق الفرنسي -الألماني، والشائعات الكثيرة المنتشرة في كواليس المؤتمر الثاني والعشرين -هناك- في موسكو. قبل أن يعبر بولفار بون نوفيل، وتحت إعلان «ركس» المضيء عن «عالم جنيات الماء»، اشترى باقة من الميموزا وقطعتي جاتوه. فكّر في اليوم الذي سيحتاج فيه إلى ثلاث قطع وابتسم. أوشك- من شدة شروده- أن يصدمه شابان- فتى وفتاة- يركبان موتوسيكلاً برتقالي اللون.

لم يتبق أمامه سوى ارتقاء درجات شارع نوتردام دي بون نوفيل الخمس عشرة ليجد نفسه في بيته. نظر -بشكل عفوي- في اتجاه المترو، مثلما اعتاد أن يفعل منذ بضعة أعوام وهو ينتظر موريبل. وفي نفس اللحظة، ظهر جزائريان، ياقتاهما مرفوعتان، ليحتميا من الريح. كانت ساعة روجيه تيرو تشير إلى السابعة وعشرين دقيقة من مساء الثلاثاء ١٧ أكتوبر ١٩٦١.

خيّرة جيلانين

تقهقر الخروفان مذعورين عندما انحرف الموتوسيكل عن الطريق، وجاء ليستقر على حافة الأرض المستخدمة كمرعى. خفف عونة من سرعته الآن وأخذ يطلق المحرك من حين لآخر. رفع السبابة والإصبع الوسطى -ليده الطليقة- إلى فمه وراح يصفر طويلاً، ثم أشار إلى الصبي ليأتي إليه:

- يجب أن تعود فورا، فالوالد بحاجة إليك في الدكان.

— وخروفايْ؟

— لا تخف. لن يهربا! ماذا تريد لهما أن يفعلا... هل يلقيان بأنفسهما في السين؟ هيا، اصعد خلفي.

جلس الصبي في مقعد الموتوسيكل «فلاندريا». وضع عقبيه على مسمار محور العجلة الخلفية، وتشبث –بشدة– بدعامة المقعد. ورغم انشغال ذهنه، كان قادرًا على الحديث مع أخيه.

— هذا المساء، سأذهب إلى باريس مع خيِّرة. وللأسف بقيت ثلاث بهائم يجب تجهيزها لزفاف ابن الأطرش. ألن تذهب إلى المدرسة غداً؟

— لا. المعلم مريض، وكما تعرف، فلدي يوم الثلاثاء مباراة، وسنتقابل –أيضاً– فريق شارع «الريبيليك».

— في ملعب سيميتير دي ڤيو؟

— لا. في هيروندل. وزيادة على ذلك، فهم يلعبون في أرضهم. لن يكون الأمر سهلاً. وإذا لم أذهب، فسيضعون صبي «الوادي» حارساً للمرمى، ليحل محلي. إنه «كسكسية» حقيقية.

—يقولون –بالفرنسية– «مصفاة».

— والوادي، أتعتقد أنها كلمة فرنسية؟!

اجتاز الموتوسيكل طريق جُر السفن على مرتفع إيل فلوري، ليطوف بمستودعات «الورق المتحدة». بدأ الضباب البارد يهبط ممزوجاً بالمطر، وقد حجب –الآن– الأطراف العليا لمصنع الغاز. دخلا مدينة الصفيح كالإعصار– عبر شارع بريه. جذبت فرقعة المحرك نحوهما –وقد تكررت مرتين– سرباً من الصبية سيطرت على كل منهم فكرة واحدة: أن يمتطي مؤخرة الجهاز. أبطأ عونة السرعة، واتجه نحو كوخ من أكواخ الأسمنت القليلة ؛ حيث حمل رجل خروفًا مسلوخًا على كتفه. فتح عونة الباب بقدمه فظهرت كلمة «جزارة» مكتوبة بالطباشير وبالحروف الكبيرة. كان شباك المنزل هو مكان تسليم اللحوم. وفي الشارع، وقف زبونان في انتظار أن يلبي الجزار طلباتهما. وبجانبهما، انهمك بعض الرجال في ترميم سقف كوخ. كانوا يسمّرون أطراف الألوح الخشبية ويثبتونها بأربطة من المطاط اقتطعوها من الإطارات البالية. .

دخل عونة الدكان وهو يدفع بالفلاندريا، واجتاز الغرفة التي تؤدي إلى الحوش الداخلي. منذ خمسة أعوام، اشترى والده –بثلاثمائة ألف فرنك فرنسي قديم– الكوخ رقم ٢٤٧ من أسرة من منطقة «جيمار» قررت العودة إلى الوطن. في هذه الفترة– عام ١٩٥٦، ما كانوا يمتلكون سوى ثلاث غرف والفناء: الدكان، وغرفة نوم الوالدين– حيث ينام أصغر الأطفال، والغرفة التي اقتسمها مع أخيه وخيِّرة. وفيما بعد، قام –هو ووالده– ببناء حجرتين ؛ مما أتاح لأخته الكبرى أن تصبح أكثر استقلالاً.

كانت خيِّرة تنتظره في الفناء. لم تكن تشبه فتيات مدن الصفيح الأخريات. فكل صديقاتها –وهن في الخامسة والعشرين– قد تزوجن منذ سنوات ويسحبن خلفهن جيشاً من الصبية، عالمهن الوحيد هو هذا الفناء– أو آخر يشبهه تماماً– إضافة إلى محل «بريزونيك» في نانتير. أفق من أرض بور محصورة بين المصانع ونهر السين ؛ على بعد عشر دقائق –بالأتوبيس – من الشانزليزيه! عرفت خيِّرة نساءً لم يخرجن من مدن الصفيح منذ عامين، بل ثلاثة.

هكذا كانت والدتها. ويوم وفاتها، أقسمت خيِّرة ألا تصبح مجرد امرأة عادية. أخذت ترعى إخوتها، وتهتم بكل ما تحتاجه الحياة اليومية لستة أشخاص: السوق، الطبيخ، الأعمال المنزلية، المحافظة على الملابس، تموين الخشب والحطب، وقبل كل شيء، سخرة المياه. هذه الجرادل التي يجب ملؤها –شتاءً وصيفاً– من حنفية الميدان وتخزينها –في الحوش– للطبيخ، والغسيل، والاستحمام والدكان. تمسكت بقسمها. وحتى تعوض هذه الطاعة البديهية من أجل سعادة أسرتها، تخلَّصت –شيئاً فشيئاً– من عبء التقاليد. وبالنسبة للجيران، أخذ هذا التطور البطيء، أشكالاً فجائية جريئة، يصعب تصورها من «امرأة جزائرية حقاً».

تتذكر خيِّرة أول صباح تجرأت فيه على الخروج –وهي ترتجف– بالبنطلون. لم يكن جينز كالذي يرتديه إخوتها، بل مجرد بنطلون من الترجال، واسع ويخفي هيئتها ؛ مثله مثل الثوب. لم يجرؤ أحد –لحظة مرورها– على إبداء أية ملحوظة بصوت مسموع. فقط بضع ابتسامات طمستها –بسرعة– نظرتها الراسخة. كانت شديدة الاعتداد بنفسها، وتفضل الموت على الاعتراف بأنها تدربت –أسابيع بأكملها– في المنزل– قبل مواجهة تعليقات الآخرين.

تقدمت نحو أخيها وقدح في يدها:

– أمسك، اشرب. إنه عصير البرتقال. إذن قررت المجيء معنا؟

– أنا ملتزم بما قلته لك. سأصحبك إلى موعدك، ثم أهرع إلى النادي بأسرع ما يمكن. سيقدمون «لي شاسوقاج» –هذا المساء– في برنامج ألبير رينيير. أكيد ستفوتني البداية.

– لو كان ذهابك معي يضايقك، سآخذ الأتوبيس والمترو.

وضع عونة ذراعيه حول كتفي خيِّرة وقبَّلها بلطف على خدها.

– تصبحين شديدة الحساسية عند الحديث عن حبيبك.

انفلتت من العناق بحيوية، ولاذت بالمطبخ.

– افهم ما تشاء! فحتى نكون في باريس الساعة السابعة والنصف– بالمواصلات العامة– يجب الذهاب الآن فوراً، كما أنني سألتقي –أيضاً– بأهالي أحياء نانتير الأخرى. وبصرف النظر عن ذلك،

فالكَسْكسى لم يجهز بعد، وأنت لن تهتم بإطعام الصغار.

– إنسي ما قلته لك. أردت فقط أن أداعبك. ومتى ينتهي الموضوع؟

– لا أعرف. في العاشرة أو الحادية عشر. لا تقلق. سعيد والوناس سيعيدانني إلى المنزل، حسب اتفاقهما مع صديق لهما، يقيم في شارع دي لاكارين، بالقرب من ورش «سيميكا». غداً صباحاً سيصلون إلى بوابة مايو ويأخذون الأتوبيس حتى محطة لاڤيلات. لقد ترك الوناس سيارته بالقرب من هذا المكان.

– الأسهل أن تذهبوا جميعاً وتأخذوا السيارة هذه الليلة، حتى لا ينزعج صبي «لاجارين»

– ربما تكون على حق. لكنها التعليمات. وجودنا في المترو أكثر أماناً من وجودنا في السيارة، خاصة بعد المفاجأة التي نعدّها لهم!

أخذت –وهي تتحدث– تخلط الكَسْكسى وتهرس حبات السَميد بين أصابعها. أسقطت بملعقة عدة بيضات في إناء به ماء مغلي. أعدت المائدة للأطفال، ثم أخرجتَ ثلاث علب زبادي «ڤيتو» من النملية ذات السلك المعلقة على الحائط.

– ستقول للوالد أن كل شيء جاهز.

غادرت المنزل. وفي الشارع، حيّت زبائن والدها. توجهت نحو منازل شركة المياه. هنا أقام سكان مدن الصفيح الأوائل. لا أحد يعرف لأي سبب غامض تركت الشركة هذه الأراضي البور عرضة لتقلبات الدهر. أربعة مبان لم تكتمل. نوع من الصناديق المستطيلة الفخمة من القرميد الأحمر، اقامت فيها عدة عائلات فوسّعت مأواها، وأضافت إليها طابقاً من صفائح الحديد والخشب. ومع مرور الأشهر والأعوام، انضمت إليهم عائلات أخرى. واليوم، أصبحت هذه المباني مركز وقمة تجمع الأكواخ والملاجئ التي يعيش فيها ٥ آلاف شخص: مدينة صفيح بريه.

قبل أن تصعد الطابق، أشعلت خيّرة عود كبريت وأضاءت درجات السُّلم المنفصلة، كان في انتظارها ثلاث نساء ورجل في حجرة فقيرة الأثاث. نهضوا عند دخولها، ووضع كل منهم –بدوره– يده على قلبه وجبينه بعد أن سلّم عليها.

– وقتنا ضيق، فانتبهوا: هدفنا –أساساً– جسر نويي. موعدكم الساعة الثامنة إلا خمس دقائق، مع أهل بوزون، سارتروڤيل، وبيتو، على رصيف دي ديون –بوتون، أمام حدائق ليبودي، وسيكون أهالي كولومب، وكوربڤوا، وآسنيير في الجانب الآخر من الجسر، على رصيف بول دومي –على مرتفع جزيرة دي لاجراندجات. وللوصول إلى نويي، عليكم بالمرور عبر بيتو، وتجنب المحاور الرئيسية. احذروا الاقتراب –بشكل خاص– من المون ڤاليريان، فهو يكتظ برجال الشرطة وأعتقد أن خط السير الأكثر

أماناً هو شارع كارنوو والباروجيه ؛ في اتجاه المقابر القديمة. وعندما تصلون إليها، انتظروا حتى الساعة الثامنة إلا خمس دقائق، ثم اصعدوا جسر نويي. ستجدون كمال ورجاله في الموقع، وسيخبرونكم بما تقرر. نهضت. لكن الرجل أمسك بها من كم بلوفرها الصوفي.

– خيرة، قولي لنا، لم يعد في الأمر أية خطورة. أين سنصل؟ إلى الشانزليزيه؟

– من يدري؟ ربما نعيد تعميد ميدان «اتوال»[1]، ليصبح ميدان «الهلال والاتوال»!

كان عونة ينتظرها في أقصى الشارع. لحقت به وهي تجري على أطراف أصابعها دون أن تنجح –دائما– في تجنب برك الماء والطين. أحكمت ربط الوشاح على شعرها. ركبت الموتوسيكل خلف أخيها، وتشبثت بخصره. اجتازا شوارع نانتير التي أخلاها المطر. شاهدت –خلال رحلتهما –مصنع الرمل وسيره المتحرك. وبعده –بكثير– الحدائق العمالية وخزان الماء المنصوب على أرجله الأسمنتية الأربع. فمنذ ثلاثة أيام، تجاسر فريق –من مدينة العبور– وتسلق البناء في وضح النهار، ليضيف إلى الحروف الثلاثة المرسومة بالأبيض: OAS[2]، حرفي I و S، فجعل من خزان الماء «واحة»[3]. دخلا باريس عبر جسر بيتو. وصلا إلى شارع فوش عبر منتزه بجاتيل وغابة بولونيا. لقد اعتاد عونة قضاء نهاره يجوب المدينة يسلم بضائع لحساب شركة صغيرة. أخذ يتفادى –وهو يقود بثقة– آخر إشارة مرور في شارع بون نوفيل، وأوشك أن يصدم رجلاً يسير –شارد الذهن– في مكان عبور المشاة؛ وذراعاه مكدستان بالزهور وعلبة جاتوه.

صرخت خيرة:

–عونة ؛ توقف. وصلنا. سعيد ينتظرني عند فتحة خروج المترو ؛ أمام ستديو للتصوير. تعال معي ؛ على الأقل لتقول له صباح الخير.

ربط عونة دراجته في عمود لافتة حظر الوقوف. سارا في البولفار مسافة عشرة أمتار. لم يكن هناك أحد بعد أمام ستديو موجيه. لكنهما اضطرا إلى إبطاء خطواتهما عندما وجدا الرجل –الذي أوشكا أن يصدماه– يسير أمامهما. لحسن الحظ، دخل شارعاً ينحرف يميناً بجوار السلالم... وفي نفس اللحظة، تبينت خيرة وجه سعيد وهو يصعد من فتحة المترو. اشتدت ضربات قلبها. ورغم البرد، شعرت بوجنتيها تلتهبان فتنفست بعمق من أنفها حتى لا تندفع نحوه.

وفي واجهة محل مجوهرات يقع في تقاطع شارع نوتردام دى بون نوفيل، كانت ساعة ضخمة – ذات بندول نحاسي– تشير إلى السابعة وخمس وعشرين دقيقة، مساء السابع من أكتوبر ١٩٦١ .

❖

(١) Etoile ، أي النجمة (٢) منظمة الجيش السري (٣) OASIS واحة بالفرنسية

الفصل الثاني

انطلقت -في هذه اللحظة بالضبط- صفارة ثاقبة، غطت على ضوضاء المرور والأصوات المبهمة التي ارتفعت من الجماهير المحتشدة على الأرصفة.

استجاب للإشارة مئات المسلمين المتناثرين في المقاهي وأمام واجهات المحلات وفي الشوارع المجاورة للبولڤار، فاكتسحوا قارعة الطريق، وتشكلت المظاهرة في دقائق. ومن تحت المعاطف، خرجت لافتات صنعت على عجل. وبعيداً، أخذ بعضهم يفرد لافتة «لا... لحظر التجول». احتلت مجموعة من النساء الجزائريات -بزيهن التقليدي- مقدمة المظاهرة، وهن يطلقن أصواتاً حادة يسميها الفرنسيون «يو-يو»[1]. ودون أن يتوقفن عن الصياح، أخذن يحركن أوشحتهن -الذهبية الخطوط- فوق شعورهن. انضم إليهن متظاهرون آخرون كانوا ينتظرون في ممرات المترو. أصبحوا الآن أكثر من ألف جزائري يسدون ملتقى طرق بون نوڤيل.

كان صاحب مقهى / مطعم «مادلين- باستيل» خبيراً بأمسيات القلاقل. فلقد تحطمت واجهة مطعمه الزجاجية في مناسبتين. الأولى عام ١٩٥٦، خلال حملة صحيفة «لومانيتيه» احتجاجاً على التدخل السوفيتي في المجر. والثانية في مايو ١٩٥٨، أثناء مظاهرة قوى ديجولية أو معادية لهم، لم يعد يذكر بالضبط. وبمساعدة عمال البار وعشرات من رواد المكان، أدخل المقاعد، والموائد، ثم بدأ يضع شرائط عريضة من الورق اللاصق على الزجاج من الداخل. تقنية استخدمت خلال القصف وأثبتت كفاءتها. وأمامهم، أسدلت الجريدة- المجهزة على نحو أفضل- ستارة من الحديد على واجهتها.

هبط روجيه تيرو سلالم الشارع وقد شدت الهتافات انتباهه. شاهد مرور عديد من المسلمين، وميز -بوضوح- شعاراً أخذ يتردد -بصوت رنان- على بعد ثلاثة أمتار منه:

«الجزائر جزائرية».

هكذا إذن. لقد تجاسروا! وها هي الحرب -التي تمثلت حقيقتها الوحيدة- في نظر الغالبية العظمى من الفرنسيين- في سلسلة متناوبة من البيانات المصطنعة أو الخالية من المعنى؛ ها هي وقد تجسدت في قلب باريس. تقدم نحوه بواب العمارة وقد توقف عن تناول وجبته، والفوطه في يده:

-هذا لا يطاق! يظنون أنفسهم في الجزائر... آمل أن يعود الجيش، ويطرد كل هؤلاء

(١) أي الزغرودة.

«الفلاقة»[1].

– لا يبدون أشراراً إلى هذا الحد ؛ بل وهناك نساء وأطفال بينهم. أسلوبهم هو السلب والنهب والذبح. وهم يستخدمون مومساتهم وأطفالهم في وضع القنابل. أتريد رأيي؟ يجب قتلهم جميعاً.

ابتعد روجيه تيرو وهو يشعر بالضيق. كان سعيد وأصدقاؤه أمام سينما «ركس»، وقد تفتت طابور انتظار «مدافع نافارون»، في حين إنهمك عونة في فتح قفل الموتوسيكل المضاد للسرقة. وتحت، على بعد خمسمائة متر –في منتصف الطريق إلى الأوبرا– صدرت الأوامر إلى النقيب إرنو –من الفرقة الثالثة التابعة لقوات الأمن الجمهورية– بتفريق مظاهرة «بون نوفيل». كان على الفرقتين –الثانية والثالثة– تدعيم وحدة الحرس المنتقل المنتشرة بجوار الجسر، حيث أعلن عن وجود تجمعات كبيرة من «الفرنسيين المسلمين». اتجهت وحدات أخرى من الشرطة نحو ستالينجراد، وجار دى لاست، وسان ميشيل، وجهاز استقبال سيارة الاتصال لا يكف عن ترديد التعليمات: «حطموا الحركة. لا تترددوا في استخدام أسلحتكم عند الضرورة. كل رجل مفوّض –في حالة الاشتباك الجسدي– في استخدام وسيلة الهجوم المضاد الملائمة».

أخذ النقيب يحث رجاله على ركوب ناقلات «البرلبيه» الزرقاء الليلية.

– لا تنسوا إحكام نظاراتكم. سنبدأ بالقنابل اليدوية. لكن الفرص مواتية –في هذه الريح– لأن نتلقى منها الكثير.

كانت الناقلات العكسرية فارغة. وقد نصّت اللائحة على حصول ربع رجال الفرقة –فقط– على أسلحتهم في بداية الاشتباك ؛ لكن هذا البند تأجل مؤقتاً ؛ بل ووزعت أربع بنادق قاذفات قنابل يدوية، وثماني بنادق آلية.

أطلق النقيب إرنو إشارة البدء. صعد طابور الناقلات– ومصابيحه مضاءة وصفارات الإنذار موقوفة عن العمل –بولفار مونمارتر وبولفار بواسونيير ؛ دون مراعاة الاتجاهات الممنوعة. توقفت الناقلات في شارع سانتيي، وتجمّعت قوات الأمن الجمهورية تحت لافتة شركة تأمين زيورخ. قام عشرات منهم بإخلاء السيارات التي تفصل بينهم وبين المتظاهرين. وعندما انتهوا من الأمر، شكّلت ناقلات البرلبيه حاجزاً يسد الطريق المرتفع تماماً. تجمع آخرون خلف السيارات الواقفة. ومن هذا المخبأ المرتجل، ألقوا بأول قنابل مسيلة للدموع، فبعثرتها هبة ريح فجائية دفعتها إلى الإرتداد بالواجهات. أمر النقيب بوقف إطلاق القنابل، وجمع فرقته أمام مصابيح الناقلات. استقبل المتظاهرون إخفاق الهجوم البوليسي بالضحك. لكن بعضهم شعر بالقلق من رؤية حشد العساكر المُغطى –حتى الركبتين– بالجلد الأسود اللامع ؛ وبالخوذات القاتمة التي يشقها خط معدني مصقول، ومن غياب الوجوه خلف كوة نظارات

(١) Fellouz، كلمة عامية جزائرية تعني قطاع الطرق.

سائقي الموتوسيكلات. لم يسمح ضوء المصابيح الباهر بتمييز أسلحتهم. طبعاً كانت معهم المطارق الخشبية الطويلة -ضخمة مثل قبضة المعول، وطويلة مثل المكانس- والعصي وأسلحة اللكم والركل القصيرةالوامضة.

فجأة، أخذ الظل الهائل يتحرك تصحبه صرخة طويلة، بطيئاً -في بادئ الأمر -ثم مسرعاً مع كل خطوة. بدا وكأن لا شيء سيوقفه خلال وثبته. ضاعف طرق الأحذية العسكرية- على الشارع المبلط- من هذا الإحساس باللعنة. بدت فرقة الأمن الجمهورية -التي انتظمت في الصف الأول- كعملاق هائل ينتفخ بالصدرية الواقية من الرصاص، والمدسوسة تحت المعطف الجلدي. لم يقاوم الجزائريون، وكأن الذهول سمرهم في مكانهم. كان ثمة إحساس بتردد حقيقي بين صفوفهم، وقد فات -الآن- أوان تنظيم أي دفاع. وكالبرق، فرضت الفكرة نفسها على الجميع ؛ فتراجع الحشد- دفعةً واحدةً- نحو سينما «ركس» ؛ حيث جرى الصدام. سقطت العصي على رؤوسٍ عارية لم تنجح الأذرع والأيدي في حمايتها. طرح شرطي امرأة أرضاً وأخذ يوسعها ضرباً بكعب حذائه. كال لها سيلاً من الصفعات ثم ابتعد. أخذ آخر يضرب بعصاته صبياً -بكل قواه- في بطنه. أخذ يضرب بعنف إلى أن تحطم المقبض الخشبي. استمر في الضرب مستخدماً الجزء الحاد منه، بينما ضحيته يمد يده ليحمي نفسه، ويحاول الإمساك باليد الخشبية. وسرعان ما أصبح عاجزاً عن التحكم في أصابعه المهشمة.

دوت انفجارات أمام حوض السباحة «نبتونا»، حيث توقفت سيارة بداخلها ثلاثة مخبرين يصوبون الرصاص -بعناية- على الهاربين، دون أن يخطئوا هدفاً واحداً. وعلى بعد حوالي عشرين متراً، احتمى عديد من المسلمين بسيارة «آريان» -لونها أحمر وأبيض- وقد امتلأت بآثار القذائف. شرع الناس يركضون في كل الاتجاهات وهم يصرخون، ويتعثرون -من شدة رعبهم- بالأجساد الملقاة على أرصفة المقاهي، وبين الموائد المقلوبة والأكواب المحطمة والملابس الملطخة بالدماء.

هنا حاصر الرصاص خيِّرة وسعيد، بينما رقد عونة طريحاً على الرصيف المقابل بالقرب من دراجته البخارية. ميتاً أو جريحاً. وتباعدت رشقات الرصاص: ساد الآن صمت تعكره حشرجات المحتضرين. مجرد هدنة. فقد أعادت قوات الأمن الجمهورية تنظيم صفوفها واستأنفت الهجوم. دفعت حركة الجموع المضطربة بخيِّرة نحو الصفوف الأمامية لتواجه إنسانا آلياً هائجاً يرفع مطرقته. جمَّدها خوف شرس تام قطع أنفاسها. شعرت بدمائها تنسحب -مرةً واحدة- من وجهها. ورغم البرد، غمر العرق جلدها المرتجف. لم يعد باستطاعتها إبعاد عينيها عن هذا الكائن الذي أوشك على الإجهاز عليها. سقطت اليد بعنف. لكن سعيد -وبجهدٍ هائل- وضع نفسه أمامها وحماها بجسده. أسقطتهما شراسة الصدام هما الاثنين معاً. واصل الشرطي ضرب سعيد، ثم شعر بالسأم. خافت خيِّرة من إظهار أيّة حركة تجعله يعتقد أنها لازالت حيَّة. وسعيد فوقها، يتصرف بنفس الطريقة -كما اعتقدت- إلى اللحظة التي شعرت فيها بالسائل اللزج الفظ وهو ينتشر فوق معطفها. أصبح خوفها وديعاً قياساً إلى الألم الشديد الذي عصف بأدق ذرة في كيانها. حملت جثة صديقها وصرخت:

– قتلة! سفاحون!

هجم عليها شرطيان واقتاداها إلى إحدى عربات هيئة المواصلات الباريسية، التى استولوا عليها لتأمين نقل المعتقلين من المتظاهرين إلى قصر الرياضة وأرض المعارض في ناحية بوابة ڤرساي.

الوناس وحده ظل سليماً. أخذ يحاول توزيع الجماهير عبر الأزقة والحارات المتفرعة من البولڤار، بينما كثير من المارة يساعدون قوات الأمن الجمهورية ويدلونهم على دهاليز وزوايا المخابئ التي توارى فيها رجال ونساء شلّهم الرعب.

اقتربت الساعة من الثامنة. وعلى الأرصفة الواقعة تحت جسر نويي. تحرك صفان هائلان من سكان صفيح نانتير، وأرجونتي، وبيزون، وكوربڤوا. أحاط بهم مسئولو جبهة التحرير الشعبية وهم يوجهون المجاميع التي أخذت تنضم إليهم. كانوا ستة آلاف شخصٍ على الأقل. بدت طرق الجسر الأربعة غير كافية لتأمين سير الموكب. تجاوزوا جزيرة بيتو سيرا على الأقدام، ودخلوا نويي. لا أحد منهم كان يحمل سلاحاً، أو سكيناً، أو حجراً في جيبه. استمر كمال ورجاله في مراقبة الأشخاص المشتبه فيهم. سبق وأن أبعدوا نصف دستة من صبية يأملون في تغيير اتجاه المسيرة ؛ فهدف المظاهرة واضح: رفع حظر التجول المفروض –منذ أسبوع– على الفرنسيين– المسلمين فقط ؛ وفي نفس الوقت، إثبات تمثيل جبهة التحرير الشعبية في الدولة المستعمرة.

بدا الطريق خالياً. ميَّزوا –من بعيد– قوس النصر وقد أضيئ بمناسبة زيارة شاه إيران وفرح ديبا الرسمية للبلاد. وكعادتهم، احتلت النساء مقدمة المظاهرة ؛ بل وأمكن رؤية أولاد صغار يحيطون بعربات الأطفال. فمن منهم كان يشك في أن زمرة الحرس المنتقل تقبع في انتظارهم، تحت جنح الليل، على بعد ثلاثمائة متر خلف مئات من المتاريس المؤلفة من رجال «الحركي»(★). وعلى بعد خمسين متراً، ودون سابق إنذار، أطلقت الرشاشات وابلاً من الرصاص. كان عُمر (١٥ سنة) أول من سقط. واستمر الإعدام بالرصاص ثلاثة أرباع الساعة.

❖

تملك الذهول والغضب –معاً– روجيه تيرو من هول ما يحدث أمامه. شدَّت أجساد المتظاهرين الهامدة انتباهه، ولا سيما جثة مخيفة انفجرت رأسها وشقتها فتحة من ظلٍ قاتلٍ تتسرب منها خيوط دم تتلوى كثعابين سائلة. وعلى الجانب الآخر، أخذ أوائل المدعويين إلى مسرح «الجيمناز» يتدافعون نحو الأبواب الزجاجية التي يحرسها خمسة عشر من العاملين به. راح مدير القاعة يلعن الدهر الذي أفسد ليلة افتتاح «وداعاً للحكمة» لليزلى ستيفنس، من اقتباس بارييه وجريدى. وقد أمكن –حتى الآن–

(★) Harkii ،متطوع في الجيش الفرنسي في شمال أفريقيا قديما.

إخفاء وقائع الشارع الدامية عن صوفي ديماريه مراعاةً لأعصابها. لكن «الأصدقاء» –الذين يلتمسون مقصورة الممثلة الهزلية– لن يدخروا جهداً لتحويل هذه الجهود إلى حد العدم.

– هذا ما سعوا إليه، قال له واحد من المارة.

حدّق فيه روجيه تيرو:

– لكنهم بحاجة إلى علاج. يجب نقلهم إلى المستشفى، سيموتون كلهم!

– أتعتقد أنهم يشفقون على أهلنا هناك. وأولاً، هم أول من بدأ في اطلاق الرصاص.

– لا. لا تقل هذا. أنا هنا منذ البداية. كنت عائداً إلى منزلي وهم يركضون كالأرانب –وأيديهم عزلاء– بحثاً عن مخبأ، عن حماية ؛ عندما أطلق البوليس الرصاص.

ابتعد الرجل وهو يشتمه.

هبط مدير المسرح درجات المدخل، ونادى على أحد الضباط.

– تعال بسرعة. هناك ما لا يقل عن خمسين شخصاً دخلوا القسم الفني والكواليس. سيبدأ العرض خلال عشر دقائق. وعليكم بالتدخل.

كوّن الضابط فرقة صفها في حالة استعداد أمام باب عمال المسرح، وأمرها –وسلاحه في يده– بفتح مصراعي الباب.. خرج عشرون رجلاً خائفين، أيديهم خلف أعناقهم، إثر تسليط أضواء المصابيح عليهم. وخلفهم –في الممر– أخذوا يعدون الكؤوس احتفالاً بالنجاح المنتظر لمسرحية «وداعاً للحكمة». أوشك روجيه تيرو على التدخل، لكن شجاعته خانته. فقد سبق وأن شاهد –بلا قدرة على التصرف– الضرب المبرح الذي تلقاه سائق سيارة تعطلت في شارع فوبور بواسونيير، لأنه حاول انقاذ جريح بإخفائه في حقيبة السيارة.

وفي الجهة الأخرى، في اتجاه مبنى هيئة البريد ذي القباب، عند تقاطع شارع مازجران، راحوا يجمعون المعتقلين. وصلت عدة أتوبيسات لشحن مئات من الجزائريين التائهين الذين حاولوا –دون جدوى– تحاشي ضربات المطارق التي توزعها قوات الأمن الجمهورية المصطفة أمام موقف الأتوبيسات. واكتفت هيئة المواصلات الباريسية بعشر دقائق انقطاع عن العمل، وخصصت سياراتها لجمع المتظاهرين. راح سائق يقرأ «الباريسي» في انتظار الأمر بالقيام. وبشكل عفوي، أحصي روجيه تيرو عدد الأتوبيسات المزدحمة، وهي تمر أمام عينيه. إثنتا عشر سيارة. وقدّرهم بأكثر من ألف من الرجال المضغوطين –الواحد في الآخر– واقفين وجرحي.

لازم مصور رجال الشرطة في أشد أعمالهم قسوة، ووميض الفلاش يكشف –على فترات منتظمة– كثيراً من اللوحات الدامية.

رجل آخر كان يراقب المشهد منذ بداية المظاهرة. لم يتحرك من ركنه في مقهى «الجيمناز». ورغم ارتداءه ملابس قوات الأمن الجمهورية، فلم يبد عليه الاهتمام بنشاط زملائه، واكتفى –ببساطة– بالتحديق في مكان روجيه تيرو المحدد. وحين اعتقد أن الوقت قد حان، خرج من الظلام. اجتاز البولڤار، واقترب بخطوات –متزنة– من شارع نوتردام دي بون نوڤيل، غير مبالٍ بالبرد والمطر. خلع معطفه الجلدي السميك ووضعه على ذراعه الأيسر. وبنفس الحركة، أعاد خوذته إلى جبهته، وتأكد من إحكام وضع نظارته. توقف في أول شارع توريل. أخرج «البروني» من جرابه. لم يفضل هذا السلاح عبثاً. فالطراز ١٩٣٥ هو المسدس الميري والأكثر انتشاراً في العالم. ولايزال –حتى اليوم– سبب شهرة ونجاح مصنع «هرستال» القومي.

قذف بمشط المسدس المزود بثلاث عشر طلقة، وأعاد تعشيقه بضربة خاطفة من راحة يده. سلاح مألوف له، وهو يستطيع –على بعد عشرين متراً– أن يفرغ محتوى خزنته في لوحة تصويب طول ضلعيها عشرة سنتيمترات. استأنف سيره بعد أن وضع «البروني» في يده اليسرى تحت المعطف الجلدي. ليست المرة الأولى، لكنه لم يستطع منع نفسه من الارتجاف والكز على أسنانه. عليه –قبل كل شيء– قمع هذه الرغبة في الفرار، وفي ترك الأشياء دون أن ينهيها. السير. الاستمرار في التقدم ؛ والتوقف عن التفكير.

تبين الآن ملامح روجيه تيرو، واستعاد –في ذاكرته– لعبة الصور التي عهدوا بها له. نفس الجبهة العريضة، والنظارات الصدفية، وهذا القميص العجيب بحافتي ياقته المزررة.

وكما في المهام السابقة، حدث كل شيء في لحظة وبسرعة فائقة إلى حد أنه لم يفهم كيف أصبح على يسار المدرس. تطابقت أصغر حركة من حركاته مع كل ما يجب عمله لإنجاز مهمته. لا شيء سيوقفه، وكأنه أنجز ما لا يمكن استرجاعه. اختفت يده اليمنى –في جزءٍ من الثانية– تحت المعطف الجلدي، ثم ظهرت وقد قبضت على كعب المسدس. لم يعره روجيه تيرو أى انتباه. انتهز الرجل الفرصة ليقف خلفه. فجأةً، أمسك رأس روجيه تيرو بذراعه اليمني ، التصق المعطف بفوهة المسدس، فأسقط المدرس باقة الورد وعلبة الجاتوه. أمسك –يائساً– بيد مهاجمه ليفلتها. لكن الرجل، وحسب نظامٍ دقيقٍ، ألصق فوهة سلاحه بصدغ روجيه تيرو الأيمن. أدخل إصبعه الوسطى في قنطرة الزناد وضغط عليه. دفع بالجسم إلى الأمام وتراجع. انهار المدرس على الرصيف وقد انفجرت جمجمته.

أعاد الرجل سلاحه في هدوء. ارتدى معطفه، واختفي عبر سلالم شارع نوتردام دي بون نوڤيل.

❖

ومع بدايات الصباح، لم يعد في شوارع البولڤار إلا آلاف الأحذية، والأشياء، وبقايا شتى، تشهد على عنف الاشتباكات. كان الصمت قد استقر أخيراً. أخذت فرقة إسعاف– أرسلتها مديرية الأمن– تفحص الجرحى والجثث. ما من أحد أربكته إشارات الحياة، ولا مشاكل الضمير؛ وقد تكدّست الأجساد بلا نظام ولا أي تمييز.

– هيه. من هنا. ها هو القتيل الخامس عشر في هذا التقاطع. ليس وسيماً، فقد تلقى رصاصةً في رأسه بالضبط! حسنا. ألا تأتون لمساعدتي؟

قلبوا الجثة.

– أوه. اللعنة، ليس جَدياً(*)! يبدو فرنسياً.

ارتبك قائد الفرقة حقًا من اكتشافه، فقرر حماية نفسه بإطلاع رئيسه على الأمر.

وفي اليوم التالي، الأربعاء ١٨ أكتوبر ١٩٦١، تناولت الصحف–في عناوينها– إضراب هيئة السكك

الحديدية وهيئة المواصلات الباريسية من أجل زيادة الأجور. صحيفة «باري جور» وحدها هي التي خصصت صفحتها الأولى لأحداث الليلة الماضية.

«الجزائريون يستولون على باريس لمدة ثلاث ساعاتٍ»

وعند الظهيرة، أعلن قسم الشرطة –في بيانه الختامي– عن مصرع ثلاثة أشخاصٍ– منهم واحد أوروبي– وإصابة ٦٤، واعتقال ١١٥٣٨ شخصاً.

❖

(*) شتيمة مقصود بها الجزائريين

الفصل الثالث

أطفأ برنار التليفزيون بطلبٍ من والدته. تحّول مقدم نشرة أخبار الساعة الواحدة ظهراً إلى نقطةٍ مضيئة واختفى.

– يمكنك استخدام الريموت كنترول يا أمي. اشتريناه خصيصاً حتى لا تحتاجين للقيام. يكفيك الضغط على مفاتيحه.

اكتفت موريبل تيرو بهز رأسها، وواصلت التحديق في التليفزيون الذي أخذ يعكس ظلام وجهها والغرفة عليها.

عملياً، لم تغادر هذا المقعد أبداً منذ عشرين عاماً، حين علمت بموت زوجها. كان الطفل الذي ينفخ بطنها هو الذي منعها –حينئذ– من ترك نفسها للموت. وما إن ولد برنار حتى تملكتها اللامبالاة تجاهه، وعاشت في عزلةٍ، في غُرَف شارع نوتردام دي بون نوڤيل الثلاث. لم تقترب أبداً من النافذة حتى لا تلمح –أسفل ثلاثة طوابق– السلالم التي التقطوا منها جثة زوجها ذات صباح من أكتوبر ١٩٦١.

تولى الجدان تربية برنار تيرو. وعندما أصبح مراهقاً، تخصص –بطبيعة الحال– في دراسة التاريخ. وخلال محاضرةٍ عن «مخاوف الغرب»، التقى بكلودين شينيه. وأصبحت رسالتها الجامعية عن «منطقة باريس عام ١٩٣٠»، ذريعة لجولاتٍ عديدة معاً.

– برنار. أنت تعلم أنها لن تعتاد هذه اللعبة. وقد حان وقت الرحيل. إذا انتظرنا ساعةً أخرى فسيزدحم الطريق السريع وأنا لا أحتمل القيادة ببطء عدة كيلو متراتٍ.

اقترب برنار من والدته، واحتضنها:

– سنعود خلال شهر بالكثير، على أبعد تقدير في بدايات سبتمبر. تركت عنواننا ورقم تليفوننا في المغرب عند البواب. إذا حدثت مشكلة، لا ترددي في الاتصال بنا. على العموم ليس قبل أسبوعٍ ؛ فنحن سنتوقف يوماً أو اثنين في تولوز، ثم نعبر أسبانيا بعد ذلك.

صافحت كلودين حماتها المُقبلة. خرجا من الشقة دون أن تبدي موريبل أية حركة. وعلى السلالم، لم تستطع كلودين أن تمنع نفسها من القول:

– لن أعتاد هذا ابداً! لدي الإحساس بمخاطبة شبح.

وكجواب وحيد، أحاط برنار خصرها بذراعه. كانت السيارة الڤولكس ڤاجن –ذات اللون الأزرق

الفاتح– تقف بعيداً، عند شارع سان– دني. جلست كلودين أمام مقود السيارة. اجتازت باريس نحو بوابة سان– كلو. انسلت بين سيل سيارات أصحاب الأجازات الصيفية. وبعد عبور النفق، أزاحت سقف السيارة وأدارت الراديو.

حدث بعض التباطؤ حتى منفذ مونتليوي، سببه الرئيسي المقطورات أو اللوريات الآلية الضخمة. قادت كلودين بسرعةٍ كبيرةٍ في الجهة اليسرى من الطريق. توقفا في بونز «مدينة البسكويت»، حوالي الساعة السابعة مساءً، ثم أخذا طريق بوردو. قضيا الليل في فندق «دي لابرس»، ببوابة ديجو، ليس بعيداً عن الجارون.

وفي اليوم التالي، اضطرا إلى التوقف بين دامازان ولافارداك على الطريق أ –٦١. ومع كل فرملةٍ، كانت «الخنفساء» تنحرف يميناً، نحو الجهة الواطئة. حاول برنار المزاح:

– طبيعي. السيارات الألمانية تجنح دائماً!

احتاجت السيارة بعض الاصلاحات. أصبحا على مرأى من تولوز ساعة الغداء؛ فتناولاه في «فانيل»: مشهيات الحلزون بالبندق، ويخْنة الديك بنبيذ «كاهور».

– هذه الوجبة تذكارٌ لنا، وستساعدنا على تحمل الطبيخ المغربي.

– برنار. لا داعي للامبريالية المطبخية. أنت لا تعرف ما تتحدث عنه، أعدك بمفاجآت ممتعة في هذا الموضوع.

– أتعجل الذهاب إلى هناك. لا أعتقد أنني سأحتاج إلى أكثر من يومين هنا. سأراجع بعض الملفات –بعد ظهر اليوم– في الكابيتول(★). وغداً، سأقضي النهار كله في مديرية الشرطة.

– أمازلت لا تريد أن تخبرني عما تبحث عنه؟

أخرج سيجارة «جيتان» من علبتها. أشعلها ثم أجاب متظاهراً بالسخرية:

– لا. أنا أهتم بحكايةٍ خطرة. ثمة منظمةٌ غامضةٌ تعمل في الظلام. اتركيني أحميك بالجهل.

غادرا المطعم. ركبت كلودين السيارة واتجهت نحو ميدان أوكستيان، على بعد خطوتين من كنيسة سان جيروم، ودخلت الفندق. وصل برنار إلى البلدية مخترقاً المدينة القديمة. بلغ الكابيتول عن طريق الحدائق. كانت أرصفة المقاهي مكتظة، فتخلى عن تناول المرطبات. دخل دار البلدية. وفي البهو، أرشدته المضيفة إلى قاعة الوثائق. وفي الساعة الخامسة والنصف، اضطروا إلى تنبيهه إلى إغلاق الأبواب.

(★) مقر السلطة.

– حسناً. هذه التحريات ذات التشعبات الدولية؟ سألته كلودين وهو يأخذ حماماً.

– أتعقب الأثر. ربما أتأكد غداً في مديرية الشرطة. لكنني توصلت إلى حكاية شيقة. تصوري، منذ اثنين وأربعين عاماً، هنا في تولوز، أعلن «المجلس الحربي» –التابع للمنطقة العسكرية السابعة عشر– عن سقوط وإعدام شارل دى جول في ١٧ يوليو ١٩٤٠،

– ابعث بالحكاية إلى لوسيان جوناس، في لعبة الألف فرنك.

– يا سلام. وأنتِ، ماذا فعلتِ؟

–انتظرتكَ.

ودفعت به فوق السرير وهي تضحك.

استيقظ برنار مبكراً. وصل إلى مديرية الشرطة قبل أكثر الموظفين انضباطاً. انتظر في مقهى/ بقالة بشارع متز، وخرج لحظة مجيء الحارس.

ظل وحيداً في المكتبة الإدراية. ومن حين لآخر، يدخل موظف وذراعاه محملتان بعلب الكارتون، والسجلات السوداء، أو بأكداس المجلات. ظلت القاعة مفتوحة بلا توقف. استأذن في الاتصال –تليفونياً– عندما سمع أجراس الكاتدرائية القريبة وهى تدق الثانية عشرة ظهراً. رفع موظف استقبال فندق «ماركور» السماعة ونادى على الغرفة رقم ١٢.

– كلودين. هذه المرة أنا جاد للغاية، وعلى وشك النجاح. لا تنتظريني على الغداء. قاعة القراءة تغلق في الساعة السادسة، أعتقد أنني سأعمل فيها حتى هذا الوقت.

– أنا سعيدة لك. لكن لا تتأخر كثيراً.

كانت هذه آخر كلمات تبادلاها معا. وفي الساعة السادسة وعشر دقائق مساءً، هبط برنار تيرو درجات مديرية الشرطة وصعد شارع متز، في اتجاه ميدان الاسكيرول. ترك رجل مقود سيارته –رينو ٣٠– وسار وراءه. أخذ برنار يحث الخطى متعجلاً رواية اكتشافه إلى كلودين. سار في شارع لانجيدك. وعلى بعد مائة مترٍ إلى اليمين، دار حول كنيسة سان –جيروم. وبعد تألق الشوارع التجارية الواسعة، تعاقبت شوارع هادئة تحيط بها فنادق خاصة، غالباً متهالكة ؛ وجدران حدائق عالية. بعدها، لم يعد هناك أية محلات عدا واجهات تمتليء بأشياء دينيةٍ وأثريةٍ. وفجأةً، لا أحد، ولا حتى سيارة. شعر برنار برجل يتعقبه. التفت للوراء وشاهده –على بعد مترين منه– وهو يفتش في جيبه ويخرج مسدساً. لم يشعر برنار –الذي أثاره الفضول– بالخوف من هذا الرجل العجوز اللاهث ذي الستين عاماً. بحث حوله عن سببٍ يدفعه لإخراج سلاحه. وقبل أن يدرك الأمر، انغرست أول طلقة في كتفه فجعلته يترنح. اقترب رامي الرصاص أكثر إلى أن كاد يلمسه. شعر برنار بأنفاسه، لكنه لم يجد القوة على المقاومة.

اخترقت الرصاصة الثانية رقبته فانهار، وقاتله يفرغ –في ظهره– ذخيرة مسدسه الست الأخيرة.

لاذ الرجل بالفرار في متاهات الشوارع الصغيرة للمدينة القديمة، ولم يجد المارة –الذين أرعبتهم طلقات الرصاص– إلا جثة برنار تيرو طريحة على الرصيف.

❖

بعد ستة أشهر قضيتها في لوزير بقسم شرطة مارجيڤول، وعلى إثر الاضطرابات التي أثارتها قضية «وربيل»، نقلت إلى تولوز في قسم شرطة الحي، بشارع كارنو. وعادةً ما كنت أدير عمل الفريق مع المأمور ماتيبو. لكن هذا الأخير، ولأولويته في اختيار توقيت الأجازات، كان يقضي أياماً هادئةً على أحد شواطئ كورسيكا. وفي هذه اللحظة –بالذات– استغل موظفو الجنازات الفرصة ليخوضوا تجربة اختبار قوتهم مع مستخدميهم. إضراب الحانوتية في أوج الموجة الحارة! والحوادث لا يمكن تجنبها. ووجدت نفسي بين نارين. العائلات الملكومة من ناحية، ومن الأخرى المضربين المتشددين. لم تورط بلدية تولوز نفسها في الأمر، وأخذت تلعب بورقة الفساد. وفي الكابيتول، كانوا يأملون في الحصول على تأييد الرأي العام ولا يعبأون برؤية الشرطة وهي تلعب دور صمام الأمان.

وفي صباح يومٍ من أيام يوليو، اندلعت المعارك بين أقارب المتوفين وحفاري القبور في مقابر «راباس» بالقرب من حجرات الموتى، حيث اصطفت عشرات التوابيت في المواراة بإحدى المقابر.

صففت رجالي أمام بوابة غُرفة ثلاجات المشرحة بدار العزاء ؛ حيث لجأ موظفون فاقهم –في العدد والقوة والهستيرية – مهاجموهم الذين يرتدون ملابس الحداد. وفي الساعة السادسة والنصف، كنا لا نزال في قلب المقابر. ربّت أحد المضربين على كتفي:

– سأحاول الحديث معهم. سأشرح لهم أسباب سلوكنا. أيها المفتش، إذا نجحت في تهدئتهم لن يتعرض موتاهم لأي أذى. نحن نضمن الحد الأدنى من الخدمة.

بدا الصبي مُقتنعاً بخطابه. ولاعتياده نقل الجثث، لم يفهم أن المتظاهرين أمامه– رغم شدة حزنهم– لازالوا على قيد الحياة.

– اطمئن. واذا ما كان معك مفتاح المبنى، فاغلقه مرتين. ماذا تريدون بالضبط ؟ يمكنني أن أحاول إعادتهم إلى رشدهم.

– أيصبح الشرطي متحدثاً باسمنا!! أتمزح ؟

لم يسبق له سماع جملة مدهشة كهذه.

– هذا ليس طبعي. لكنني لا أعتقد أن المقبرة هي المكان المثالي لتصفية الحسابات. لا هُم، ولا

بالأحرى الشرطة، سيدبرون لكم أعمالكم. فاستمرار هذه التمثيلية -إذن- لن يفيد في شيء.

- نحن نطالب- فقط- بعلاوة ظروفٍ غير صحية، مثل منظفي المجاري. زمان، عندما كان القدامى يخرجون بقايا القبور، لم تكن ثمة مشكلة ؛ فكانوا يعثرون على عشرة كيلو جرامات من العظام المسحوقة. الآن، وعندما نخرج أبطال الستينيات... ولأنه العهد الذهبي للبلاستيك... لا أضحك عليك... أقسم لك أننا لم نعد نرى العظام في كثير من الأحيان. أشياء كهذه تصد النفس، فأغلب الصبية الذين نستأجرهم ينسحبون بعد يومين أو ثلاثة ؛ ويفضلون الموت جوعاً على كسب ٥ آلاف فرنك في هذه الظروف. ٣٠٠ ورقة علاوة ليست نهاية العالم!

قطع حديثنا شرطي بزيه الرسمي:

- أيها المفتش كادان، الرقيب لاردان يطلب حضرتك من سيارة اللاسلكي. تلقي بلاغاً من القسم عن جريمة قتل في حي سان -جيروم.

أصيب حفار القبور بالوجوم فعلا:

- أسرة إضافية علينا تَحَمُّل مسئوليتها.

عبَرت المقابر. وقفت سيارة بالقرب من باب الفقراء المربّع. فراغ تحتله الأشواك، نصبت فيه ستة أو سبعة صلبان مترنحة من الحديد، وفوق تل من أرض نبشت حديثا ؛ وضعت آنية من الخزف الأبيض وبضعة زهورٍ. دفعت بمصراعي الباب. كان الرقيب لاردان مقعياً في مقعد السائق بالسيارة رينو ١٦، مستغرقاً في اكتشاف الـ «٤٣٥٠٢٢٧٤٤٨٩٨٥٦...» احتمالاً ممكناً لمكعبات «روبيك»

- نجحت، إذن؟

نهض واقفاً، ودسّ اللعبة في جيبه.

- ناحية ونصف من المكعب. ابني ينجح وهو مغمض العينين. إنهم يقيمون مسابقات في فصله بالصف السادس.

- هذا شيق جداً. وعدا ذلك.

احمّر وجهه مثل سطح المكعب المكتمل.

- نعم. حسناً. لا. اكتشف بعض المارة شاباً مقتولاً بطبنجة أو بمسدس. فريق بوراسول في الموقع على بعد خطوتين من شارع لانجودوك.

- قُد السيارة. سنذهب إلى هناك. شغّل صفارة الإنذار، وإلا فلن نصل -وسط كل الذين

ينعمون بالأجازة الصيفية– قبل هبوط الليل.

كان الرقيب أول بوراسول ضليعاً في مهنته. فقد وجدت كل الأقسام المعنية بالمسائل الجنائية في أوج نشاطها.

– تسعدني رؤيتك أيها المفتش كادان. تركت الجثمان في وضعه الأصلي. لم نلمس شيئاً في غيابك.

– جميل جداً يا بوراسول. وتحرياتك الأولية؟

– ضعيفة جداً. ولا أي شاهد عيان. سمع عشرات من السكان الفرقعات. واحد منهم رأى خيالاً يبتعد في اتجاه شارع ميتز. هذا كل ما في الأمر. الواقع أننا لازلنا نواصل عمليات التمشيط. لقد تلقى حوالي عشر طلقاتٍ في الظهر، أعتقد أنه من مسدس آليّ (بارابلوم) مقاس ٦ مللي. لديّ أوراقه. مؤكد أنه سائح عابر.

وتأكيداً لاستنتاجاته، أعطاني جواز سفر فرنسي ومحفظة من الجلد البني. كانت الأوراق الشخصية باسم برنار تيرو –المولود في ٢٠ ديسمبر ١٩٦١ بباريس– يقيم في ٥ شارع نوتردام دي بون نوفيل بالدائرة الثانية. بطاقة طالب صادرة من جامعة «جيسو» وعدة صور لأمرأة شابة دُسّت في الجيوب الشفافة للمحفظة؛ وفي وسطها ثمانية آلاف فرنك وشيكات سفر، وفاتورة طعام –لشخصين– من «ڤانيل»، بتاريخ الليلة الماضية.

– على الأقل، لم يندم على وجبته الأخيرة. ٤٣٠ فرنكاً لاثنين! بوراسول، ابحث عمن كان يمسك بالشوكة الأخرى. اتصل بمصلحة المجاري واطلب منهم فحص فتحات الصرف على مسافة مائة وخمسين متراً. من يعلم. ربما تخلّص القاتل من سلاحه في إحدى الزوايا.

– المسألة ليست بهذه السهولة أيها المفتش، فهم يرفضون –كل مرة– مساعدتنا في «المجاري»...

– يعتقدون أنهم فوق القانون؟ إضافة إلى أنهم يحصلون على علاوة وليسوا مثل حفاري القبور!

– ماذا تقول أيها المفتش كادان؟

– أنا أفهم ما أقول. اترك منظفي المجاري. سأتكفل بهم.

❖

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، دخل مكتبي مدير مرفق الصرف الصحي بالمدينة، وسلمني حقيبة بلاستيك بها سلاح:

– ها هي النتيجة. لك أن تطلب –فحسب– أيها المفتش. انتشله موظف من البلدية في مجّمع شارع كروا بارانيون، فالتيار ليس قوياً في هذا المكان.

– إذن يمكن أن نفترض أن مكان الاكتشاف هو –بشكل عام– المكان الذي اختاره القاتل ليلقي فيه المسدس.

– أهو مسدس؟ لم أعرف أبداً الفرق بين الطبنجة والمسدس.

– هذا شيء أولي. فهو يعمل بشكل مزدوج. المسدس له مشط، والطبنجة لها حجرة خراطيش. ألم يلمسه صبيك؟ لقد شرحوا لهم كيف يتصرفون.

أخذت السلاح من ماسورته –دون إخراجه من كيس المعمل الجنائي– وشرعت أفحصه.

– إننا نواجه محترفاً.

لم يخف محاوري دهشته. يبدو أنه يتغذى على روايات كونان دويل وريتشارد فريمان.

– كيف عرفت هذا؟

شرحت له وأنا أخاطر بتبديد إعجابه المتنامي بي:

– إنه «لاما سبشيال» طراز ١١٠ مسدس منتشر مثل مسدسنا «يونيك ل». وعلى العموم، لا يهم إذا كان هناك خمسون واحداً في المتر المربع، فلكل سلاح صفاته، والمعامل مجهّزة بحيث تجعله ينطق. المشكلة في المسدس «لاماسبشيال» أنه من صنع «جابيلوندو» في «ڤيتوريا». وإذا عرفت –بالإضافة إلى هذا– أن المصنع موجود فى مقاطعة جيبوزكوا، فى قلب بلاد الباسك، فستبدأ في تكوين فكرة.

– ولا أدنى فكرة.

– عام ١٩٧٢، أغار فدائيون من منظمة «إيتا»(★) على ناقلة تمتلئ بهذا النوع من الأسلحة. اختفي ثلاثمائة مسدس. لا نعرف المصدر، لكن الأوساط الفرنسية تستخدم –من حين لآخر– سلاحاً مصدره هذا الهجوم المسلح. وبشكل منتظم، نحصل على السلاح المزود بأرقام التسجيل، نراجعها على القائمة التي وضعها الحرس المدني فيتطابقان. لا نحتاج للذهاب بعيداً، فنحن على خط مباشر مع مصنع «ڤيتوريا»! يمكن للمعمل أن ينتقل –فوراً– بحثاً عن البصمات، لكن لا أحد يحصل على مسدسٍ جديدٍ ليضع عليه بصماته... شكراً على أية حال أيها المدير الفني، هذا يساعدنا على التقدم.

مدّ يده إليّ باحترام، وانحنى برشاقة. وعلى عتبة الباب، لم أستطع مقاومة الرغبة في زيادة اضطرابه

(★) E. T. A منظمة تطالب بانفصال إقليم الباسك عن فرنسا.

وتشويش أفكاره قليلاً.

– شكراً مرةً أخرى. وبالمقابل، إذا حدثت جريمة عندكم أو في الأقسام التابعة لكم، لا تترددوا في اللجوء إليّ.

بعده جاء الرقيب أول بوراسول إلى المكتب. أبداً لم أره فاقداً هدوءه أو ابتسامته. يبدو أنه لم يكن كذلك خلال عمله في قسم شرطة ميراي، المدينة الجديدة المشيّدة في ضواحي تولرز ؛ حيث آخذوه على ضربه لشابين جانحين ضرباً مبرحاً في مقهى المركز التجاري «نارڤال».

– لَمْ نجهد أنفسنا لمطاردة طفل. عندما تناولا الطعام في «ڤانيل» –أمس الأول– سألا صاحب المطعم عن عنوان فندق، فأرسلهما إلى «ماركور سان– جورج»، على بعد مائة متر من مكان الجريمة. لم نقل لها أي شيء. إنها تنتظرك. أم نأتي بها إلى هنا؟

– لا. هيا بنا. قل للاردان أن يهتم «بالمحل»، واترك له أرقام تليفوناتنا.

كان باستطاعه إدارة الفندق الاستغناء عن زيارتنا. طلبوا منا أن نركن السيارة –الملونة بالأبيض والأسود– في أعماق موقف السيارات ؛ ولم يترددوا في وضع صالون خاص تحت تصرفنا، حرصاً على كتمان الأمر...

بدا واضحا أن كلودين شينيه لم تنم كفايتها ؛ فقد حددت عينيها هالتان سوداوان. نهضت عندما رأتنا:

– ماذا حدث لبرنار؟ أريد أن أعرف...

أخذتُ نفساً عميقاً.

– مات مقتولاً. حدث هذا ليلة أمس، بعد الساعة الثامنة بقليل، بالقرب من الفندق.

ارتسم إعياء هائل على ملامحها. إضطررت إلى الاقتراب بأذني لأفهم ما تهمس به.

–ولكن لماذا؟ لماذا؟

– أنا هنا لأكتشف هذا يا آنسة. متى غادر المكان؟

– مبكراً جداً، في الصباح وأنا نائمة. غالباً قبل الساعة الثامنة. إسألوا الاستقبال. كان يقوم بأبحاثٍ في قسم الشرطة، واتصل بي الساعة الثانية عشر ظهراً ليخبرني أنه لن يعود للغداء.

– أي نوع من الأبحاث؟

– لم يقل لي. اكتفى بالمزاح ليجعلني أعتقد أنه يطارد منظمة دولية.

– لسوء الحظ ربما لم تكن مجرد دعابة. هل قابلتما معارف لكما في تولوز منذ أمس الأول؟

– لا أيها المفتش. لا أحد. كنا ذاهبين إلى المغرب لقضاء الأجازة الصيفية، فخرجنا إلى تولوز، إنها أول مرة أضع فيها قدمي هنا. وبرنار أيضا، الأولى والأخيرة.

– هل خرجتِ خلال فترة بعد الظهيرة أو ليلة أمس؟

رسمت ابتسامة تقزز:

– توقعت أن تسألني عن ذلك. الجواب لا. تناولت الغذاء في مطعم الفندق. خضروات نيئة، فيليه بقري، وفراولة بالكريمة، ثم قرأت في الشرفة في الشمس.

– ولم يقلقك اختفاؤه! تتوقعين عودة صديقك في السادسة مساءً. وصباح اليوم التالي، في الثامنة والنصف، يجدك رجالي تأكلين الكرواسون، ولونك شاحب بالكاد. كل شيء يثير دهشتي. آنسة شينيه، هذه جريمة.

وضعت يديها على جبينها وانفجرت في البكاء.

– يحدث أحيانا ألا يعود مساءً في باريس...

– كنتما تعيشان معاً؟

– نعم. كنا نعيش. إنه التعبير الملائم. منذ ستة أشهر وبرنار يعيش معي. وفي بعضِ أمسيات الاكتئاب، يختفي ويعود في الصباح الباكر، ودون أي إيضاح. والدته مسئولة عن هذا. حسنا؛ أريد أن أقول أنها مسئولة عن قلة ثقته. ولد برنار وقد مات والده قتيلاً في ظروف درامية. لا أعرف أكثر من ذلك، غير أن اختفاؤه قد أثرَّ –بشكلٍ خطير– على والدة برنار، فهي لا تخرج أبداً من منزلها، ولم أسمعها تقول سوى ثلاث جمل فقط خلال عشر زيارات.

– حسناً. سنحضر متعلقات صديقك الشخصية. وسيطلب منك الرقيب أول بوراسول التوقيع على إيصال. بالطبع عليكِ البقاء في تولوز بضعة أيام لضرورات التحقيق. تبقى المهمة الأصعب، الذهاب إلى المشرحة للتعرف على الجثمان قبل التشريح.

❖

أثناء غيابي، أتى أحد الشهود. جعله لاردان ينتظر في الممر، أمام باب مكتبي الزجاجي. ترواح عمره بين الخامسة والثلاثين والأربعين؛ يرتدي بنطلوناً من الجلد، وسترة مربعات متعددة الألوان وينتعل حذاء «بوت» مكسيكياً رائعاً. «كاوبوي» نموذجي!

نظرت إلى لاردان متوعداً ؛ وأنا أكز على أسناني.

– براڤو. إنها مسخرة. وآمل –لصالحك– ألا يضيِّع وقتي.

وقبل أن أدفع الباب، راقبت مغني الروك الهرِم: سحب مشطاً من جيبه وأخذ يدخله في شعره وهو يمسده. وبراحته، فتل خصلة على جبينه. طلبت منه الجلوس.

– حسناً. لديك ما تود التصريح به عن مقتل الشاب الباريسي؟

رفع ذراعيه ولوى عنقه، ونجح في الكلام بصوت هزيل.

– على مهلك. لاحظت هذا الصبي الليلة الماضية، أثناء خروجه من المديرية، فمقري العام يقع في الواجهة، في بار «شي ڤيردي»، وهو الركن الوحيد الذي يمكن فيه لعب الباشينكو.

لا يعرف لاردان ما ينتظره ما إن أفرغ من هذا المهرج.

– لا علم لي به. وما هو هذا الباشينكو؟

– آلة أصلها ياباني وتعمل بالعملة ؛ تشبه الفليبير قليلا. نشتري كرات من الفولاذ من خزنة البار، ونلقمها في فتحة علبة معلّقة على الحائط. وبالقبضة، نوجه الكرات عبر الحواجز. وإذا بلغنا الهدف، نربح كرات آخرى.

– نعم. وبعد ذلك؟

نظر إليّ عاجزاً عن الفهم.

– حسناً. وبعد ذلك، نبدأ من جديد!

– عظيم. طيب. ارجع والعب بالكرات. لدي أشياء أخرى غير الاستماع إلى قصصك.

–لكن، سيدي المفتش ؛ لقد رأيته حقاً هذا الفتي لم يكن وحده.

انتفضت.

– لم يكن وحده! أوضح.

– حسناً. أنهيت شوطي وتأهبت للخروج عندما غادر الباريسي المديرية. أحب جداً الفرجة على الشباب الوسيم. والحق أن الرجل ليس بغيضاً. عزمت على ملاحقته عندما لاحظت وجود رجلاً آخر يقتفي أثره. رجل لديه نقود كثيرة ؛ يقود رينو «٣٠ت. إكس». سيارة سوداء...

– رأيت سيارته. أتذكر رقمها؟

– لا. فقط الإقليم، ٥٧. إنه باريسي هو الآخر. عندئذ، كففت عن الاهتمام به، ودفعت لنفسي ثمن شوط آخر من الباشينكو.

– أتستطيع وصف غريمك؟ قامته، ملابسه...

– نعم. رجل متوسط القامة، حوالي متر وخمسة وستين. شعره أبيض رمادي. رأيته من ظهره أغلب الوقت. غير أنني أقدر عمره بما لا يقل عن ستين عاما. أما ملابسه فهي مثل ملابس الموظفين: بدلة رمادية وحذاء أسود.

ناديت على لاردان.

– شكرا على هذا الزبون ؛ فهو أول من شاهد القاتل، الذي يتنزه في «رينو ٣٠ت. إكس» سوداء، مسّجلة في باريس. اتصلوا بالحرس، وشرطة الطرق، وكل مواقع رسوم المرور الواقعة بين بوابة سان كلو، وستّ دونيي. اتركوا كل الأشياء الأخرى جانباً. فلم يسلك طريق باريس –تولوز، خلال اليومين الماضيين، أكثر من عشر سيارات. افحصوا كل المحاضر. ومن ناحيتي، سأراجع ما يخص المدينة. فمن يعلم!

أصبحت الساعة الحادية عشر بالكاد وقد حصلت على استجواب، وزيارة للمشرحة، ومحادثة مع مُغرَم بالباشينكو! لا ينقضني إلا فنجان من القهوة الجيدة لأهضم كل هذا. توجهت –ببطء– نحو ماكينة القهوة الآلية. دفعت بقطعتي نقود بضربة خاطفة لأسعفها في عملها. سقط قدح أبيض بلاستيكي فوق الشبكة. راح خيط من السائل البني –يحرف مساره بعض الفقاعات– يملأه في صمت. انغرس عود شفاف في الشراب لينبهني إلى نهاية العملية. وعلي حين غرة، قطع استمتاعي صيحات انبعثت من صالة الاستقبال. تخطي اللغط مستوى توبيخ الجمهور العادي. مررت خلف الشباك، فأوقفني رئيس القسم.

– لا نفهم شيئا. كل هؤلاء الناس استدعاهم المأمور ماتيو ؛ ولا نجد أي أثر لملفاتهم...

– أنت مسئول عن كام شخص.؟

– حوالي ثلاثين حتى الآن أيها المفتش ؛ وهم يأتون بلا انقطاع.

– سأحاول حل المسألة. اعطني أحد هذه الاستدعاءات.

سلمني ورقة زرقاء. استمارة عادية صادرة من قسم البوليس، وتُلزم المُرسل إليه بالحضور دون إبطاءٍ. وتم ذكر السبب بطبيعة الحال: «إعادة تنظيم البطاقات الجديدة في الكمبيوتر، وذلك بهدف مكافحة الإرهاب». وتفسر الفقرة الاخيرة سبب سرعة استجابة كل هؤلاء الناس: «الأشخاص الذين تم استدعاؤهم مطالبون بالمثول والحضور، وكل مخالف سيتعرض لعقوبة قد تصل إلى١٠ أيام حبس و٣٦٠

فرنكا غرامة (المادة رقم ٦١ و ٦٢ وما يليها من قانون المرافعات الجنائية).

أخفى ختم «قسم شرطة كارنو –تولوز» نصف تاريخ الإرسال: ٢٨ يوليو ١٩٨٢.

– سجّل اسم كل من يحضرومعه استدعاء كهذا، واطلب منه العودة إلى منزله بلا قلق، وسنعاود الاتصال بهم خلال بضعة أيام. أعتقد أن المسألة مجرد مزاح.

– كيف عرفت يا هذا حضرة المفتش؟

– أحسنت صنعاً باختيار وظيفة مكتبية... لقد سافر ماتيبو للأجازة قبل عطلة ١٤ يوليو. ولا أعرف كيف استطاع توقيع هذه الأوراق أمس الأول. هناك شخص ماكر يتسلى بأعصابنا؛ لكن ليس من الصعب كشفه. وكخطوة أولى، أكتب قائمة بالموظفين الذين يمكنهم الحصول على الاستمارات الخالية والأختام. وسيقوم الرقيب أول بوراسول بالفرز الأول، ويرسل لي المنتخَبين سعداء الحظ.

❖

بعد ثلاثة أيام حُلَت مشكلة واحدة: منحت بلدية تولوز مائتي وخمسين فرنكاً علاوة للحانوتية. وتم التصويت بالموافقة –بالاجماع– على استئناف العمل، مما أتاح لي رفع الحاجز الأمني الموجود في مقابر «راباس» واسترداد أربعة رجال.

احتل حوالي مائتي تولوزي شبابيك قسم البوليس، مستنكرين ارتياب البوليس فيهم باعتبارهم إرهابيين. فلم نكن قد نجحنا في كشف مصدر الأوراق المزورة، لانشغالنا –أكثر من أي شيء آخر– بالتحقيق في مصرع برنار تيرو. وعلى طرف المكتب، رقد تحليل المعمل عن الطلقات والذي يتضمن المقارنة بين إحدى الرصاصات برصاص السلاح الذي وجدته مرافق البلدية. كانت نتيجة اختبار بئر المياه شكلية، فالقاتل استخدم المسدس فعلاً، وأظرف الطلقات متطابقة –تماماً– مع الرصاص. التزم المعمل بأقصى حدود الدقة فأرفق –مع التحليل– الصورة السلبية وقد تم تكبيرها ثلاثين مرة ومعها جزء مرفوع من الرصاصات. أظهرت مسارات الرصاصات أن تيرو تلقى رصاصتين من الأمام وستاً أخر في الظهر، وهو طريح على الأرض. بدت نقط الاختراق الأمامية عادية. قدّر المعمل مسافة إطلاق الرصاصة بين مترين وأربعة أمتار، بينما تركت الطلقات التالية –على النقيض– أثار احتراق هامة. والمرجّح أن القاتل لم يبعد أكثر من خمسين سنتميتراً عن الضحية.

لم يلق تقرير الرقيب لاردان أى ضوء إضافي. ربما استطعنا الاعتقاد –بسهولة– بعدم وجود الرينو ٣٠ أبداً، لولا أن سائقها راودته الفكرة السيئة بإثبات وجودها من خلال الجثة التي تركها.

– وعمال محطات البنزين بالاردان، هل استجوبتهم؟

رفع ذراعيه نحو السماء، وتركهما تسقطان لتصفعا فخذيه.

– طبعا أيها المفتش، واحداً واحداً. المسألة ليست معقدة. سيارة كهذه مزودة بخزان سعته سبعون لتراً. ويُقَّدر استهلاكها –على الطريق السريع– بأحد عشر لتراً في المتوسط. فإذا افترضنا أنه ملأ خزانه قبل الانطلاق، فسيقع في ورطة، إذ سيتوقف محركه –بلا شك– عندما رماند أو آجان. على أية حال، لقد توقف مضطراً ليتزود بالبنزين. ورغم هذا، لم تستقبل أية محطة خدمة هذه السيارة ؛ ذهاباً وعودة.

– ولماذا تعتقد أنه غادر تولوز؟

– يبدو لي منطقياً، كأنه تنفيذ لاتفاق ما. فمهمة الرجل تصفية تيرو. وبما أنه أنجز عمله، فالطبيعي أن يعود بهدوء إلى منزله.. كل شيء يشير إلى أنه شخص محترف ؛ مثل المسدس «لاماسبشيال» فمصدره المباشر المجموعة المسروقة في أسبانيا.

– أوافق على المسدس. لكن هناك شيئاً لا يتماشي مع الموضوع أبداً...

– أي شيء أيها المفتش؟

– الاغتيال ؛ بكل بساطة. اقرأ ورقة المعمل. ومن السهل إعادة المشهد: تيرو يسير للقاء قاتله، بديهي أنه لا يعرفه. وعلى بعد ثلاثة أمتار أو أربعة، يخرج القاتل المسدس من جرابه، ويصيبه بطلقتين: واحدة في الكتف، والأخرى في الرقبة. وعندما ينطرح تيرو أرضاً، يُجهز عليه –عن قُرب– بست رصاصات في الظهر. أتعرف كثيراً من المحترفين يعملون بهذه الطريقة؟ لا. أنه رجل في المهنة. منفذ، إعدام. ينتظر أن يصبح الهدف على بعد متر، وبينما يمد ذراعه، يُقحم الفوهة في القلب أو في الصدغ حسب المدارس! رصاصة أو اثنتان بحد أقصى. بدلاً من هذا، يفرغ رجلنا الطيب مشط مسدسه، مجازفاً بإثارة الحي كله بالقبض عليه. اقرأ هذه الفقرة: الرصاصة الثانية فقط هي التى سببت جروحاً مميتة عندما اخترقت العنق. ولا واحدة من الطلقات الأخرى أصابت عضواً حيوياً. وهذه الرصاصات الست الزائدة هي التى تدفعني إلى الاعتقاد بأن القاتل متورط في الموضوع بشكل مباشر، وهو ما يكشف أنه ليس محترفاً. لكنه هاوٍ واعٍ، وأكثرهم قسوة. وللقبض عليه، سننتفق مزيداً من الطاقة والذكاء تفوقان ما يتطلبه ترتيب مكعبات «روبيك». ألا تعتقد ذلك يالاردان؟

لم أترك له وقتاً للإجابة.

– هيا اتبعني. سنقوم بجولة في الكابيتول. قبل وفاته، اطلع برنار تيرو على أرشيف البلدية ومديرية الأمن. كان يتهيأ لتدريس التاريخ ؛ ويحتمل وجود علاقة بين ما أراد الاطلاع عليه ودراساته. على العموم، لا يجب إهمال شيء.

كان موقف ميدان السوق مزدحماً. وجد لاردان مكاناً في شارع تور أمام لافتة الكباريه العمومي «كاف» . لازمنا سوء الحظ. كان برودي، مساعد العمدة للإعلام، يخطب في قاعة الاستقبال الكبرى بالكابيتول. عند مفأجاتنا له، تخلي عن محادثيه وجاء للقاءنا:

– حضرة المفتش كادان. حضرة الرقيب! يا لها من مصادفة، كنت أفكر في الاتصال بكما...

أخذني من ذراعي، وقادني خلف كتلة من الزهور تشكل حاجزاً.

–... لا يمكن أن يتكرر هذا أيها المفتش. يجب أن نوقفهم فورا ؛ وإلا سيمرغوننا في الوحل... وأنتم أيضاً! الصحافة لا تعرف شيئاً حتى الآن، لكنني لاأنخدع! فما إن يشموا رائحة الجيفة حتى يتصارعوا لانتزاع القطعة كلها.

أخذ يعرق في قطرات غليظة. وصلت آثار العرق إلى أنفي في دفقات حارة. رحت أتنفس بشكل متقطع لأخفف من عدوان الرائحة.

– لكن، ألقي القبض على من؟ قل لي وأنا أعدك ببذل كل ما في وسعي.

– «الموقفيين»[1]

– من؟

– الموقفيين. إنهم جماعة مُنظمة تبعث بطلبات استدعاء مزّورة خاصة بمكافحة الإرهاب. نحن نتلقى مئات من الاحتجاجات التليفونية ؛ ومكتب العمدة امتلأ بطلبات الحضور. لا تنس أنه عضو بمجلس النواب أيضاً، ويلعب دوراً هاماً فيه. سبق وأن لعبوا نفس الدور عام ١٩٧٧ ، قبل انتخابات مجلس البلدية. طبعا تتذكر هذا.

– في هذه الفترة كنت أعمل بمنطقة ستراسبورج ؛ ولا أهتم كثيراً بمطبخ الانتخابات التولوزي.

– آسف. لم أكن أعرف. إنها حكاية أذهلت الناس كلهم. وفي الكواليس لم يتحدثوا إلا عنها. عام ١٩٧٧ ، تعرضنا لهجوم نموذجي: بيان مزيف من البلدية ؛ وزعت منه عشرة آلاف نسخة. ثم مؤتمر صحفي حاشد، تأليب للنفوس ضدنا من جانب صحف البلاد، وصولا إلى مظاهرة العاطلين. فقد أعلن الموقفيون –بكل بساطة، أن «أسيديك»[2] ستوقف إعانة البطالة عن ألف وخمسمائة عاطل، وطلبوا منهم الحضور لتسلم مساعدة عاجلة من العمدة. وفي الساعة الحادية عشر صباحاً، ازدحم المكان بالناس

(١) أصحاب المواقف أو الموقفيون Situationnistes ،من situationnisme ، حركة طليعية سياسيه أدبية وفنية، ظهرت في نهاية الخمسينيات، وريثة السريالية. وتبدّت في مواقف راديكالية خلال أحداث ١٩٦٨ .

(٢) ASSEDIC نظام للتأمينات وإعانة البطالة

وأراهنك أنك لن تعرف ما اخترعوه. ثلاث عربات -نصف نقل- من «بيجول»- أشهر مطعم في المدينة، الذي طلبوا منه -باسم العمدة غداءً فاخراً لمائتي شخص: بتي فور، توست بالسمون، بالكفيار، بالفواجرا. ولك أن تخيل رد فعل العاطلين -الذين تصوروا أنهم فقدوا كل شيء- وخاصة عندما أراد جرسونات «بيجول» اختراق صفوفهم، بصوانيهم المترعة بالمشهيات.

- ماكرون حقاً. هل قبضتم على هؤلاء الموقفيين؟ فلا أحد يحصل على بطاقات ١٥٠٠ شخص دون أن يترك أثراً.

هز رأسه يميناً ويساراً. تناثرت بعض قطرات من العرق -بردتها المسافة- على خدي؛ فأثارت في رعدة تقزز.

- لا. أبداً. كلفتنا هذه الحملة غالياً جداً. ورغم هذا اختفوا؛ دون أن يجنوا فائدةً واضحةً من ذلك. لقد استهدفوا العالم كله. «بوديس» مثله مثل «ساڤاري». ثم لا شيء طوال ستة أعوام. ومنذ بضعة أشهر، اعتقدنا أننا نواجههم مع مجموعة «ل.ت.ت.ك».

اعتقدت دائماً أنه من الأفضل تجنب مخالطة صفوة المسئولين المحليين، لكن مواهب برودي الحكائية ستجعلني أتراجع بسهولة عن قراري. قطع كلامه -بعد ذكر هذه المنظمة الغامضة- واستبق سؤالي:

- نعم. «لجنة تحرير وتنظيم الكمبيوتر». مجموعة من «المجاذيب»، أشعلت النار في مركز إقليمي للكمبيوتر، وأجبرتنا على إعادة استمارة رسوم الإسكان! كل ما عملناه تحوّل إلى دخان. إنهم الآن في السجن، واتضح أن حركتهم لا علاقة لها بحركة الموقفيين.

- إننا نستخدم كل الوسائل للعثور على هؤلاء المزورين. لن يستمروا في الهروب طويلاً. لكنني مسئول -حالياً- عن جريمة قتل، وتتفهم ضرورة تخصيص الأولوية لها. والأفضل ترك أصحاب الدعابات أحراراً على ترك قاتل طليق.

- حضرة المفتش، لا أتفق معك في هذا الرأي. دع قاتلك يصبر، فهو لايطلب ما هو أفضل من ذلك. لكن، امنعهم من إلحاق الضرر بنا، فهم يحاولون زعزعة استقرارنا. الأمر يتعلق بالديمقراطية.

- أكرر لك، نحن نهتم بهذه المشكلة، ولتعلم -بهذه المناسبة- أنني من يحدد أولويات عملي. وإذا لم توافقني، فلتذهب في جولة إلى المشرحة، واطلب -باسمي- رؤية تيرو!

تركته مسمّرا في مكانه، ولحقت بالرقيب لاردان بإدارة الأرشيف. وطبقاً لمدير القسم، اهتم برنار تيرو بالوثائق الإدراية الخاصة بعامي ١٩٤٢ -١٩٤٣. خصّص لنا منضدةً وأتى لنا بكل الوثائق التي إطلع عليها الضحية. استعرضت محتويات إحدي العلب: عقود، توقيع العقود، مداولات. خليط من الأوارق

المغطاة بالأختام والتواريخ والأرقام. لا شيء يثير القلق. آه لو كان لدينا محور للبحث! بدا النهار صعباً وظلّ على هذا الحال. لم أجد شيئاً ذا مغزى، إن لم يكن الجدول السنوي للرسوم على الكلاب بمقاطعة تولوز عام ١٩٤٢.

نبش لاردان ووجد كومة وثائق صادرة عن المجلس الحزبي، تحكم على العريف دي جول بالمثول أمام فصيلة الإعدام بتهمة الخيانة العظمى. غادرنا الكابيتول محبطين، وسط موظفي البلدية. قادني لاردان في اتجاه بار «فلوريدا» بالميدان.

– منذ سنوات لم أضع قدمي فيه. كان مكان لقائنا خلال سنوات الكُلية. أتذكر؟ أشاعوا –في كل مكان– أنه يجب توخي الحذر عند الكلام فيه.

– آه. نعم. لماذا؟

– لأنه أكثر المقاهي الصغيرة –في تولوز– ازدحاما بالمخبرين.

– هيا بنا فلنره –مرة– لنمنحه مُبَرراً لسمعته.

❖

صباح اليوم التالي، استقبلنا الأستاذ ليكوسان، مدير المحفوظات الإدارية، في مديرية الأمن. موظف عجوز، متغضن، مصاب بعلّة في قدمه. سبقنا إلى متاهة الأرفف. أخذ جسده يتمايل يساراً. لكن، ما إن يوشك على الاصطدام بدعامات الحديد، حتى يقرع جهازه التعويضي الأرض الخشبية، ويعود تأرجحه إلى الوضع العمودي. صاحب اهتزازاته تذمر غير مسموع.

– بعد اتصالكم التليفوني، أيها المفتش، راجعت الملفات التي طلب الضحية فحصها. كل المصنفين تحت العلامة DE. أوراق قديمة، مثل كثير منها هنا. وضعت كل الوثائق في مكتبي. ستشعر براحة أكبر بالعمل فيه. وأنا تحت تصرفكما تماماً.

أغلق الباب بهدوء؛ ثم ابتعد في الممرات بإيقاعه الثنائي.

– هذا شيء عَمَلي؛ فنحن واثقان أنه لن يتصنت من وراء الباب.

أمسك لاردان، وقد أسعدته دعابته، بأول مجموعة أوراق وهو يمتلئ بالحيوية.

تقليم الأشجار، تعويض الخسائر، دفاع مدني(★).

(★) الكلمات الثلاثة بالاضافة إلى «مداولات»، «وفد»، «ترحيل»، «القضاء على الفئران» و«تطهير» تبدأ كلها –في اللغة الفرنسية– بحرفي DE والتى –في كثير منها– بالنسبة للأفعال– تعني عكس الفعل.

اختلفت الأوراق الإدارية، التي تتالت بين أيدينا هذا اليوم، عن سابقيها قليلاً. كانت تختص -هذه المرة- بأقاليم جارون العليا كلها ؛ وليس مدينة تولوز فقط. وسرعان ما أصبحنا على معرفة عميقة بمشاكل الاغتيالات في موريه، وفي سان جودنز، أو بشكاوى البلديات في مونتاستوك أو في ليجوقان، والخاصة بالإصلاحات -المتبادلة- للطريقين القوميين، رقم ٨٨ ورقم ١٢٤. وبفعل المصادفة في الترتيب، تلاقى الهزلي والمأساوي. مثل مذكرة -من مدير المديرية- يطالب فيها بإلغاء مداولات وفد «لانتا» الخاص، بحجة اجتماع أعضاء المجلس البلدي في قاعة الفندق الخلفية. ولم تؤد إلى شيء المراسلات التالية، والتي برروا فيها موقفهم بأن تذرعوا بانهيار سقف مبنى البلدية. وتمسك مدير المديرية بموقفه. وعلى حافظة الأوراق -التي تلت ملف المداولات- نسخت- بعناية وحرص على كل حرف- كلمة «ترحيل».

عاملوا ملف الترحيل للاعتقال بنفس أسلوب الإدارات الأخرى. حرص الموظفون على ملء البطاقات بنفس الاهتمام الذي أولوه لطلبات الحطب، أو العودة إلى المدارس. حلّ التعامل مع الموت محل التعامل مع الأمل، وبدون أن يثير ذلك أي تساؤل لديهم. وفوق ورق مقوى، شبك تلغراف مصفّر عليه توقيع بيير لاڤال بتاريخ ٢٩ ستمبر ١٩٤٤، يوصي فيه سلطات البلدية بألا تشتت العائلات اليهودية المقرر ترحيلها إلى معسكرات الاعتقال. موضحاً أنه «إزاء التوتر الذي يثيره هذا الإجراء الوحشي، حصلت من الجيش الألماني على الموافقة بألا ينفصل الأطفال عن ذويهم. وبذلك يستطيعون البقاء على قيد الحياة».

ضد البربرية نحو بوجنڤالد وآوشڤيتز!

عهدت بملف «القضاء على الفئران» إلى الرقيب لاردان، واستغرقت -مرة أخرى- في الساحات البيروقراطية لملف «التطهير»

❖

الفصل الرابع

انهمك بواب فندق «ماركور» في ترتيب الأمتعة في حقيبة السيارة «الكوكسينيل»، وكلودين شينيه تسدد الفاتورة في «الاستقبال».. اعترضت طريقها في الممر.

– صباح الخير. حرصت على تحيتك قبل السفر.

– لم أتوقع كل هذه المجاملة من البوليس التولوزي. حضرتك تبذل كل ما في وسعك، لكن ذلك لن يجعل هذه المدينة جذابة لي...

– آسف...أتيت لأوكد لك أن جثمان برنار تيرو سيتم ترحيله يوم الاثنين. لم يفدنا التشريح كثيراً.

عند ذكر الطبيب الشرعي، أغلقت عينيها طويلاً.

– أعذرني، لا أستطيع اعتياد الأمر. هل هر في الأمر؟

– لا. ليس تماماً. لدينا أوصاف محددة جداً عن قاتلٍ مفترض. وحالياً، يقوم الرقيب أول بوراسول بوضع قائمة بالأشخاص الذين تواجدوا في مديرية الأمن ليلة الكارثة. بعد ذلك، سنراجع أنشطتهم، ووضعهم المالي، ومشاكلهم العاطفية...

– بأي هدف؟ ما علاقة هذا بموت برنار؟

– اسمعيني. إنها ليست إلا فرضية عبثية يجب التحقق منها: فلنفترض أن القاتل لا يملك إلا وصفاً تقريبياً عن هدفه، وصديقك يتطابق –بالضبط– مع هذا الوصف...

– لا، مستحيل! هذا يعني أن برنار مات عبثاً، خطأ من نوع جديد، ولا أكثر من هذا.

– أكرر لك، ليست إلا فرضية عمل لا أستطيع استبعادها. في هذه الحالة، لاحظ القاتل وشركاؤه خطأهم. ولن يكون هناك شيء اكثر إلحاحاً من تنفيذ اتفاقهم. وعملي يتمثل في منعهم من تحقيقه. من ناحيتي، يحدث أحياناً، أن أجري خلف أشباح أكثر مما أحتمل. لكن، اطمئني فأنا لا أهمل الموضوع الرئيسي. فمن المحتمل جداً أنها كانت مهمة القاتل الحقيقية، وهذا يعني أنه التقطكما في باريس، أو أنه –ما أن علم بسفركما وبمكان الوصول، حتى أسرع إلى هنا.

– تبدو واثقاً من نفسك أيها المفتش.

– وإلا فلا أفهم لماذا يأتي قاتل إلى تولوز ليغتال رجلاً في متناول يده في باريس. وبعد ذلك، ينجح

في العثور على فندقكما، ويقتفي أثر برنار صباح اليوم الذي توجّه فيه إلى مديرية الأمن. ترصّده طوال النهار، ثم تتبعه عند خروجه. واستغل عبوره طريقاً مهجوراً ليرتكب جريمته.

– لكن، كيف استطاع تحديد موضعنا بهذه السرعة؟

– للوهلة الأولى، يبدو الأمر معقداً. ولكن عندما نبحث عن شخص ونصمم على القضاء عليه، ندرك أن المسألة في بساطة تحية الصباح. فأهلكما وأصدقاؤكما على اطلاع بمشاريعكما. اتصل القاتل تليفونيا مدعّيا قرابته لكما. كيف تعتقدين أننا نتصرف؟ بنفس الطريقة! وبالنسبة للاتتصال بالفندق هذا شئ طفولي. فكل عام تنشر نقابة السياحة دليلاً عن الفنادق في تولوز. اكتفى الرجل بتسجيل الأرقام وطلبها بالترتيب. وصل إلى حرف الميم في «ماركور سان –جورج» وبناء على طلبه، رحب موظف الاستقبال بتأكيد إقامة السيد ومدام تيرو فيه. في الفندق ١٧٠ غرفة ويتعامل السويتش مع ١٢٠٠ مكالمة يومياً في المتوسط حصلت على الأرقام من الإدارة. وللأسف، لا يذكر أحد مكالمة لا قيمة لها كهذه. لا معجزة!

فرغ بواب «ماركور» من ترتيب الحقائب، واقترب منا. لم تنتبه كلودين إليه. أخرجت عشرين فرنكاً من جيبي ودسستهم فى تجويف يد الرجل كبقشيش، فشكرني بابتسامة ملحاحة وانحناءه تملق من الدرجة الأولى. أدركت كلودين الموقف وحاولت تسديد المبلغ.

– لا. احتفظي بهذه النقود. وعلى أية حال، لدي اقتراح أعرضه عليك. يجب أن أقضي بضعة أيام في باريس للتحقيق. واذا وافقت أن أصحبك، سألازمك في الرحلة.

وافقت دون تفكير. لحقت بلاردان الذي وقف بسيارته في باحة سيارات الفندق ؛ وقطعت معركته مع مكعبات «روبيك».

– أعطني حقيبتي. لن أركب القطار. اقترحت علّي الآنسة شينيه قطع الطريق معها. لا شيء تغيّر بالنسبة للعودة، ستأخذني السبت القادم، من قطار الساعة الحادية عشر.

– حسناً يا ريّس، إلا إذا وجدت سائقاً آخر من الآن فصاعداً.

وعندما فكرت في كلامه، لاحظت أنها المرة الأولى –حقاً– التي يدعوني فيها «ريسًا».

❖

كنا قد تركنا مطار «بلانياك» على يسارنا، وعداد الفولكس ڤاجن لم يتحرك عن المائة والثلاثين في الساعة. وبهذا الإيقاع، تأكدنا من وصولنا إلى باريس في منتصف بعد الظهيرة. لكنها عندما رأت مطعماً على طريق سان أندريه دي كوباز، قررت التوقف. لم يضايقني هذا. ولم تقطع شهيتي الإعلانات الزجاجية –المائلة إلى الخضرة– والتي تتغنى بالمذاق الذي لا يقارن للأطباق المقدمة في البار. أفرغ أتوبيس

-يمتلئ بسياح أسبان- حمولته أمام الأبواب عندما شرعنا في الجلوس. طَلبتُ مايونيز وشواء بالبطاطس المقلية. اكتفت كلودين بطبق خضروات وفنجان شاي. واذا استبعدنا جانباً الحديث في المسائل العامة (الدخان لا يضايقك؟ أليس الهواء شديداً عليك؟)، فلم تتفوه بكلمة منذ رحيلنا من تولوز. حاولت استئناف الحوار:

– أي نوع من الدراسة تقومين بها؟

فاجأتني الإجابة بإيجازها:

-تاريخ.

فكرت تفكيراً عميقاً قبل أن أجازف بسؤالٍ جديدٍ:

– أية فترة؟

كوفئت على جهودي، وخرجت من كآبتها...

– المنطقة الباريسية في بداية القرن. وبوجه خاص، السكان الذين أقاموا في مواقع حصون باريس بعد تدميرها عام ١٩٢٠. وحتى تكون في الصورة، هي -على وجه التقريب- أطراف ضواحي باريس الحالية.

أنعشها الحديث عن أبحاثها. قررت البقاء في نفس الاختصاص.

– هذا موضوع غير مألوف لامرأة شابة مثلك. قرأت بعض الكتب من تأليف أوجست لي بريتون، يتوقع المرء رؤية رجل عسكري على المعاش، أو شرطي على أقصى تقدير، يهتم بهذا النوع من الدراسة. برنار أيضاً كان مؤرخاً، متخصصاً في الحرب العالمية الثانية كما أعتقد؟

وضعت شوكتها وأمعنت النظر فيّ وهي تمط شفتيها.

– لا. اطلاقاً. كان يُعد أطروحةً حول «الطفل في العصور الوسطى». معلوماتك غير دقيقة.

– هذا مجرد افتراض! لقد راجع صديقك -في الكابيتول ومديرية الأمن- ملفات وثائق الفترة من ١٩٤٢ /١٩٤٣، فاستنتجت أنه استفاد من زيارتكما العابرة لتولوز للاطلاع -رسميًا- على وثائق ليست تحت تصرفه في باريس.

طلبت فنجاني قهوة من الجرسون، وأسندت رأسها على راحة كفيها وهي تضغط على وجنتيها. صوبت أظافر طويلة -رهيفة ومطلية- تحت عينيها. شرعت أنظر إليها بالتفصيل لأول مرة. بالطبع حاولت -لا شعورياً- الاحتيال عليها، لكنها فرضت نفسها عليّ. وهذه اللحظات من الألفة قرّبت

المسافات بيننا. ليست كلودين مجرد زبون. علمت أنها ستغادر المدينة هذا الصباح ؛ فقد أبلغني قاضي التحقيقات بذلك، ولم يعد لدي شيء أكثر إلحاحاً من الحصول على تصريح بالمهمة إلى باريس. خلال فترة عملي القصيرة وقعت مرتين في غرام شهود أو ضحايا. ويقولون إن البعض يجد الشرطة بلا قلب.الأولى في الألزاس، عندما قابلت ميشيل شيلتون، صديقة مناضل شاب، عالم بيئة، تم اغتياله. ثم في كورفيلييه، مجرد مدينة سكنية للضاحية الباريسية. هناك -أيضاً- لم أصرح بسهولة بسبب اهتمامي بمونيك وربيل، فقد كان لدي ما يستوجب ذلك: عندما تعرفت عليها كانت طريحة الفراش، وقد اخترق صدرها -تواً- رصاصة عيار تسعة ملليمترات. ولاشك أن أقل المحللين النفسيين كفاءة سينجح في اختلاس جلسات نصف أسبوعية -لمدة عشر سنوات- من مريض يحدثه عن مغامرات من نوع: «إيروس»(١) و «تاناتوس»(٢)، الزوجين الملعونين!

أصبحت نظرتي مُلحة.

– لماذا تنظر إليّ بهذه الطريقة أيها المفتش. أنت تضايقني...

– تريدين أن أكون صريحاً؟

– إنه دورك فيما أعتقد. وإلا فسيعني هذا فقدان الأمل في كل شيء!

– أنا مصاب بمرضٍ شديد الانتشار بين رجال البوليس الشباب، وخاصة مع شاهدة في جمالك.

تركت يديها وجهها، ووقفت في سرعة البرق.

– ولا كلمة أيها المفتش. أنا لم أصحبك إلى باريس لأسمع هذا النوع من الكلام، وانما لتسهيل التحقيق، ليس لدى قلب للعب دور الأرملة الجريحة. وإذا كنت سأدفن برنار هذا الأسبوع، فاعلم أنني لست مستعدة لخوض مذبحة جديدة.

وتحت نفق سان -كلو، بعد خمسمائة وخمسين كيلو متراً فيما بعد، نطقت بالجملة التالية:

– أين أنزلك؟

– في تقاطع شارع فرساي، هناك محطة تاكسيات.

لم تحاول مصالحتي، وجعلت السيارة تصدر صرير السرعة الأولى، وهي تغادر حافة الرصيف.

❖

(١) EROS، غريزة الحب.

(٢) THANATOS كلمة يونانية ترمز للموت

صباح اليوم التالي أفضت بي أولى زياراتي إلى جزيرة «لاسيتيه». أظهرت تصريح المهمة خمس أو ست مرات قبل أن أتمكن من الوصول إلى مكان البطاقات المركزية. وبعد إرضاء رغبات آخر حارس، دخلت قاعة الدور الرابع. كل شيء فيها رمادي: الأرض، الحيطان، الأرفف؛ حتى الموظفين اكتسبت قمصانهم وجناتهم وشعورهم اللون السائد. طغت رائحة تراب ساخن في الحجرة الضخمة. رائحة تراب قديم ترسّبت منذ سنوات، أسيرة الستائر العريضة التي تكسو النوافذ وسلسلة الأبواب المزدوجة المؤدية إلى السلالم.

علمت من يافطة معلّقة في المدخل أن نظام التصنيف يرتكز على معلومتين محددتين: اسم عائلة الشخص المطلوب، والعنوان المفترض إقامته فيه. مددت يدي باستمارة أسئلتي إلى الموظف المختص. أومأ إلى معقدٍ شاغرٍ بحركة من رأسه. جلست بجوار موظفه هدته قسوة عمله. تطلب البحث ساعة، ثم نادوا عليَّ في الشباك، قبل أن يسلموني بطاقة سمراء.

(أ) بطاقة «الترتيب الأبجدي»: برنار تيرو، مجهول.

(ب) بطاقة دائرة «محل الإقامة»: ٥ش نوتردام دي بون نوفيل، باريس، الدائرة الثانية. الأشخاص ذوي البطاقات (١) ألفريد درويبه (٢) جان ڤاليت (٣) روجيه تيرو (٤) فرانسوا تيسو.

ملأت استمارة أسئلة أخرى باسم روجيه تيرو وأعطيتها للموظف. اكتفى بذهاب وعودة سريعين، ثم، كتب المعلومات أمامي مباشرة.

(أ) بطاقة «الترتيب الأبجدي»: روجيه تيرو، مدرس تاريخ في ليسيه لامارتين، مولود في ١٧ يوليو ١٩٢٩ في درانسي (سين). توفي في ١٧ أكتوبر ١٩٦١، خلال مظاهرات جبهة التحرير الشعبية في باريس. عنصر أوروبي مرتبط –على الأرجح– بالحركة الجزائرية الإرهابية.

تأكدت من مصلحة الأحوال المدنية ببلدية باريس أنه فعلاً والد برنار تيرو. أسرعت إلى المباحث العامة، حيث تولى زميل عرفته خلال دراستي في كلية ستراسبورج، إدارة قسم تحقيق الشخصية. ضربة حظ. وجدته في مكتبه غارقاً في الأشكال المستديرة المطبوعة على ورق «جلاسيه»(★) لمجلة للرجال العصريين.

– أهلا دالبوا! الناس لا تشعر بالملل في «م .ع .»! أهو صاحب العمل الذي يدفع لك الاشتراك؟

انتفض واضعاً المطبوع مفتوحا –على آخره –على صورة فتاة الغلاف.

– كادان. يا لها من مفاجأة! كنت أظن أنك في تولوز. أية مكيدة أتيت لترتكبها في الحي؟

(★) Glacé بمعنى مثلّج ومصقول. يلعب المؤلف بالكلمات للإشارة إلى دور «المجلة» في شعور «دالبوا» بالراحة في هذا الجو الحار.

– لا شيء يثير الشبهات ؟ اطمئن... أتولي جريمة قتل باريسي جاء ليُقتل على بُعد خطوتين من قسم البوليس عندي. كلفني هذا ثمانية أيام في باريس على نفقة الدولة. وأنت، الأمور على ما يرام؟

حرك يديه وكأنه يُقلد ترنحات المركب.

– متوسطة.. نُصفي البطاقات. بجب نقل كل ما يتعلق بالإرهاب –من بعيدٍ أو قريبٍ– إلى القسم الجديد الذي أنشأوه في الوزارة. منذ شهرين لا أفعل إلا هذا. انتهى زمن التحقيقات في موقع الجريمة ؛ وحولوني إلى موظفٍ مكتبي!

نهض وبسط قامته الطويلة. بدت قلة التدريبات واضحة على هيئته الجانبية. أحاط شريط من الدهن بوسطه وشدّ قميصه الصيفي. لا زالت سحنة وجهه بهذا الاصفرار الذي يميز من لا يحتملون الخمر ولا يستطيعون الاستغناء عنها. فقد –خلال خمسة أعوام– الجزء الأكبر من شعره. واستند الصلع على شريط نحيل فوق كل أُذن، ليتسع فوق القفا. احتفظ بذوقه في الملابس المهندمة ؛ رغم أن تواضع مرتبه دفعه إلى الاخلاص –في مشترواته– لـ «تروا سويس» بدلاً من «كاردان».

– إن لم تكن زيارة عمل، أفيعني هذا أنك أتيت لزيارتي –هكذا– لاستعادة ذكرى الوقت الجميل الذي مضى ؟ ومع ذلك، أذكر أننا غالباً لم نتفق في رأي!

تقدمت نحوه وربّت على كتفه في حركة وديّة.

– لكننا لم نتعارك معاً ابداً... والواقع أنني بحاجة لأن تخبرني عن تاريخٍ يرجع إلى أكثر من عشرين عاماً، في أكتوبر ١٩٦١ على وجه التحديد.

– وما علاقة هذا بتحقيقك ؟

قررت التزام الصراحة معه، فهو لايدير قسم المباحث ليدلي بمعلوماتٍ مجانية، فلو أنه وجد أي شيء غامضاً، فسيرفض الكلام.

– والد الشاب المقتول في تولوز مات خلال المظاهرات الجزائرية، في ١٧ أكتوبر ١٩٦١ . عرفت هذا من الملفات. ربما يكون هذا خيطاً ذا قيمة. سبق وسمعت عن «حاملي الحقائب» ، هؤلاء الأروبيين الذين يجمعون النقود لحساب جبهة التحرير الشعبية ويعبرون بها إلى سويسرا.

هز رأسه وأخذ يتأرجح في المقعد.

– نعم. بالتأكيد، شبكة جيسون وكل ما حولها. لازال هناك، في العمل، إثنان أو ثلاثة من القدامى الذين تتبعوا المسألة من أولها إلى آخرها. وقد توقفت هذه السلسلة عن العمل في يوليو ٦٢ ،

عند الاستقلال. أُغلقت الملفات ودُفنت. وأعتقد أنه حتى الفرنسيين الذين أدينوا بمساعدة جبهة التحرير الشعبية حصلوا على عفوٍ شاملٍ. لأرى ما تأمل العثور عليه في هذا المجال ؛ إلا العقبات المزعجة.

أدت المحاولات التي بذلها لإقناعي إلى العكس تماماً، فالموضوع شديد الحساسية. وصديق الطفولة تبدّل فأصبح «كاتماً للسر».

– لنفترض تورط والد تيرو في عمليات حقائب أموال جبهة التحرير الشعبية، فإن تصفيته –في أكتوبر ١٩٦١– تصبح من عمل المخبرين السريين المكلفين بتنقية المشهد السياسي. في هذه الفترة، لم يعجبهم كثيراً الفرنسيين الذين انتقلوا إلى الجهة الأخرى.

– لعلك تبالغ بعض الشيء يا كاداان. أتدرك ما تحكي عنه؟

– نعم ؛ تماماً. في البدء أثيرت بعض القضايا، لكن النتيجة تحولّت إلى النقيض. أصبحت دعاية رخيصة الثمن وحولتهم إلى شهداء. لا تقل لي –وانت تعمل في هذا القسم– أنك تجهل هذه التفاصيل الصغيرة. فقد مارسوا دائماً هذه الطريقة، ولتصفية منظمة الجيش السري كذلك. وكان مدير شرطة سابق –من «سين –سان دني»– هو الذي قاد الفدائيين الديجوليين. وأخيراً، فليست فرضية المخبرين السريين وحدها هي المطروحة.فأنا لا أستبعد فكرة قيام جبهة التحرير الشعبية بهذا العمل، كرد فعلٍ انتقامي –على سبيل المثال– على اختفاء أحد الطرود، أو لمعاقبة حارس ثرثار. بل إن هذه الفكرة تبدو لي مرضية أكثر، ففيها ميزة خلق الرابط مع مقتل الابن. ولك أن تتخيله يدس أنفه في شئون والده فيكتشف جزءاً من كنز جبهة التحرير الشعبية.

– منذ قليل –أثناء دخولك– سخرت مني لأنني أتفرج على كتابٍ إباحي! وأنت. أنت تفضل الروايات المسلسلة! أين يختبئ كنزك الحربي؟ في قاعة سرية في الكابيتول؟ –

– ربما في تولوز، فهي واحدة من المُدن التي تضم أكبر عدد من الجزائريين الذين تم ترحيلهم إلى وطنهم، وآخرين قادرين على الحياة مع الماضي. إنها تستحق المراجعة! لكنني لا أطلب منك إلا شيئاً واحداً، ملف روجيه تيرو للإطلاع عليه.

أمسك بتليفون أسود –موجود على طرف مكتبه– وأدار رقماً داخلياً من ثلاثة أعداد.

– سأرى ما أستطيع عمله من أجلك.

واضح أن من يتصل به يُشغل الخط ؛ فقد اضطر إلى الاتصال به مرتين قبل الحصول عليه.

– آلو جربيه، دالبوا من تحقيق الشخصية. أحتاج إلى تكوين فكرةٍ عن حاملي الحقائب، يحتمل عودة بعضهم إلى الشبكات الإرهابية. لابد وأن أمامك تحليل ما حول الموضوع. إذن، أضف الآن ملف روجيه تيرو. وهو شخص أوروبي من جبهة التحرير الشعبية، توفي خلال مظاهرات أكتوبر ٦١ الجزائرية.

أنهى المكالمة سعيداً بنفسه. بدا مسروراً -بشكلٍ خاصٍ- من إظهار سلطاته أمام مفتش صغير من الأقاليم.

- سنحصل على كل شيء خلال ربع ساعة. وفيما عدا هذا، أأنت متزوج؟

- لا. ما أن أبدأ في الاعتياد على مكانٍ حتى أنقل! سأرى في تولوز... وأنت؟

ربّت على بطنه ورفع رأسه.

- أليس واضحاً؟ هل لديك وقت للتعرف على جيزيل. إنها طباخة ماهرة. مساء غد مثلاً؟ سأدبر أموري بحيث تعتني حماتي بالصغيرين.

وافقت حرصاً على مصالحي. فلن أضطر -على الأقل- إلى تسلية الطفلين. دخل الغرفة زميل لدالبوا، بالتأكيد جربيه، ووضع ملفاً على المكتب.

- ها هو... هذا كل ما لدينا عن شبكات مساعدة الفلاقة، ربما تكون مُطلعاً على أشياءٍ خطيرةٍ. هناك أسماء عديدة محاطة بالأحمر في قائمة الإرهاب. نحن ننبش مرةٍ أو مرتين سنوياً! خاصة كل من دار حول بورديبل. لكنني أحذرك، فهم حيتان كبيرة، ولم ننجح -أبداً- في إثبات أي شيء ضدهم، فنكتفي بتحقيقات الحوادث والمصادفات. لا أحد يعرف شيئاً. بعد ذلك، وحتى عندما اغتالت بورديبل مجموعة «الشرف والشرطة»، لم نجد أي شيء.

لم يكف الشاب عن إلقاء نظرات سريعة في اتجاهي وهو يتحدث. قرر دالبوا طمأنته.

- المفتش كادان. صديق. وهو يحقق فى قصة قتل غامضة في تولوز، وانتهز فرصة وجوده في باريس ليتصل بأصدقائه القدامى! يمكنك أن تكمل يا جربيه. لاغريب بيننا.

صافحني جربيه وواصل حديثه مع دالبوا.

- إذا دسست أنفك، فكن حذراً. قتلوا بورديبل إثر عملية إفساد في أقسامنا. كان قد تخلي -منذ نهاية حرب الجزائر- عن الخدمة النشطة، وأخذ يناضل من أجل المصالحة السياسية بين الفلسطينيين واليسار الإسرائيلي. خدعونا وأوهمونا أنه على اتصال بعناصرٍ مسلحةٍ تعمل على أرضنا، وأن شقته تستخدم كمخبأ. وحدث تسرب لبعض المعلومات من وثائق التحقيق، ونشرت الصحف القصة. وبعد ذلك بأسبوع، استعد بورديبل لمواجهة مجموعة «الشرف والشرطة»

- «أوكي». سأسير بحذر. وملف تيرو؟

وضع جربيه ملفاً أصفر أمام دالبوا وفتحه. احتوى الملف على ثلاث ورقات أو أربع، منسوخة على

الآلة الكاتبة.

– أتساءل ما الذي تبيغه من هذا الرجل. يمكننا تلخيص حياته في سطرين...

أمسك دالبوا بالورق وهو يصيح:

– لا تهمني حياته. مايستهويني –بالضبط– في هذا الموضوع، هو موته! اترك لي هذه الوثيقة التافهة، سأعيدها لك قبل هذا المساء.

حياني جريبه وغادر الغرفة.

– لطيف حقاً زميلك. تخيلت علاقات أكثر توتراً في إدارة المباحث. ما عليك إلا أن تطلب –بأدب– أسرار الدولة في المنزل، فيبعثون لك بها.

– لا. لا تفكر هكذا. فبعضهم يستحق التوبيخ. لكن، ليس جريبه. فهو لا يستطيع أن يرفض لي طلباً.

– لكن، لماذا؟

– اسمح لي بالاحتفاظ بالأمر سراً. فعملي يرتكز على معرفة الحد الأقصى من الأشياء عن الحد الأقصى من الناس. وبالأساس، تلك الحقائق التي يخفي أصحابها الأصليون وجودها. افترض أنك موظف في مديرية الأمن، وأن شائعات قوية تضع استقامة زوجتك الأخلاقية موضع الشك... على سبيل المثال أنها لا تأنف من مرافقة فتيات صغيرات السن...

– ليس هناك أي احتمال لذلك. سبق وقلت لك أنني لست متزوجاً!

ابتسم دالبوا.

– ليست حالة جريبه. فلنكف عن الحديث عن هذه الحماقات. إذا ما أكملت، فسأعتبر نفسي دنيئا. لنر جذور رجلك...

أخرج بطاقة من الدوسيه.

– روجية تيرو. ولد في١٧ يوليو ١٩٢٩، في درانسي، سين، وتوفي في ١٧ أكتوبر ١٩٦١. في باريس، سين. متزوج من موربيل لابور. جاء الطفل بعد وفات الأب (برنار تيرو، في ٢٠ ديسمبر ١٩٦١، في باريس). يقيم في ٥ شارع نوتردام دي بون نوفيل. باريس، الدائرة الثانية. لا وجود لأي نشاط سياسي أو نقابي. عضو في جمعية المؤرخين. يظهر اسمه– عام ١٩٥٤– في قائمة الموقّعين على «نداء ستوكهولم».

– وما هو مضمون هذا النداء؟

وضع دالبوا الورقة ونظر إليّ.

– عريضة دولية لحظر الأسلحة الذرية.

– مصدرها الشيوعيين؟

– شاركوا في الأمر. لكن النداء وقعّه أكثر من مليون فرنسي. وإذا بدأنا في التدقيق، فسنقضي على نصف نواب المجلس الحالي ؛ الأغلبية والمعارضة معاً ؛ فمن الصعب إضفاء أهمية كبرى على دليلٍ كهذا. هناك أيضاً تقرير معهد الطب الشرعي: «عثر عليه ميتاً إثر رصاصة في رأسه بالصدغ الأيمن، عقب الاضطرابات الجزائرية في السابع عشر من أكتوبر ١٩٦١. ساعة الوفاة المرجحة: بين السابعة والثانية عشر مساءً تشريح الجثة: لا شيء. ملابس وأشياء مختلفة عثر عليها مع الجثة: بدلة صوف من ثلاث قطع، ماركة «هادسون» مقاس٤٢، لونها رمادي بخطوط بيضاء. القميص المشهور بالأمريكي، أزرق فاتح مقاس ٣٨. فانلة و «سليب»، ساعة «ديفور» غير معطلّة. محفظة تحتوي على البطاقة الشخصية والبطاقة المهنية الصادرة عن التعليم القومي باسم روجيه تيرو. فاتورة بمبلغ ١٤٩٨ فرنكاً جديداً لشراء جهاز تليفزيوني «ربيت –دي جاردان» المزود بالقناة الثانية. مائة وثلاثة وعشرون فرنكاً جديداً، تذكرة سينما من «ميدى –مينوي». هذا كل شيء. ليس ثرثاراً عميلك هذا!

– لا. لا يهمنى إطلاقاً معرفة أنه يرتدي سليب «بتي باتوه» أو سليب «إمينانس»... وعلى العموم، فالأكثر إثارة للاهتمام أن أعرف أنه دخل سينما اسمها «ميدي –مينوي». تعرفها؟

– إسماً. حالياً عادوا إلى وضعهم السابق، إلى الأفلام الإباحية. في ذلك الوقت، كانت مكان لقاء هواة الأفلام الخيالية، حيث كانوا يعرضون أفلاماً عن مصاصي الدماء، والسحر، والشعوذة. وقتئذ، لم يكن مقبولاً دخول هذه السينما، تماماً مثل قضاء السهرة في «بيجال».

– لو اسمي هرقل بوارو، لكان عليّ أن أسجل رقم التذكرة، وأهرع إلى المركز القومي للسينما لأتبين تاريخ تسليم هذا الكوبون بالضبط. وبمعلومة من هذا النوع، سأعرف آخر فيلم شاهده روجيه تيرو. وبالتالي، عمر عاملة السينما! ما الذي آمله أفضل من ذلك؟ لا شيء. هذا ملف ناقص. أو، الأسوأ، إنه خدعة. يجب العثور على أدلة دامغة أكثر في مكان ما... هذه المظاهرة –مثلاً– استعلمت عنها بشكل واضح. ذكرت المديرية أربعة قتلى أو خمسة ؛ هذا حسب البيان. و«ن. ش. أ»، نقابة الشرطة الإقليمية، أفادت –في بيانها الختامي– أن ٦٠ شخصاً لقوا مصرعهم ؛ وتم فحصهم. لكن رابطة حقوق الإنسان...

عندما سمع دالبوا هذا الاسم، ضم القبضة اليمنى، وتظاهر بغرس إصبعه الوسطى المدببة في مؤخرة وهمية.

— ... نعم أعرف ما تعتقده في هذا النمط من المنظمات. لكن —في مسألة— كهذه يصبح رأيهم في نفس أهمية رأي الآخرين. يتحدثون عن مائتي قتيل لليلة الاضطرابات، وعن رقم مثله خلال الأسبوع الذي تلاه. ما أحاول أن ألفت نظرك إليه هو أنها قصة خطيرة. مذبحة في قلب باريس ؛ ولا أحد يعرف شيئاً! حتماً هناك آثار لمذبحة كهذه...

حَكَّ دالبوا وجنته، واتكأ على مقعده:

— سأرى ما يمكن عمله.

أخذ التليفون مرةً أخرى واتصل بجربيه:

— ألقيت — تواً — نظرة على أوراقك. هذا قليل. تعال لتأخذها ما إن تنته من عملك. وعلى أية حال، لدي سؤال أو اثنان.

ثم موجها حديثة إليَّ:

— سيعود فوراً. دعني أمهد الأمر، وحافظ أنت على دور ابن العم الريفي ؛ فذلك قابل للتصديق!

دقيقتان، وبعدها كان جربيه جالسا على يميني يستمع إلى دالبوا، الذي أخذ يحرك الملف الأصفر أمام عينيه:

— هذا غريب فعلاً. يلتقطون مدرس تاريخ من على الرصيف الباريسي، ورأسه محشوة بالرصاص، ولا يراعون تشريحه. لا شيء. ولا تحقيق أيضاً. لا يبحثون عن أسباب الوفاة ولا عن القاتل! يعتقد المرء أنه يحلم. وطبقا لهذه الأوراق، لم يستطع أحد إثبات أن روجيه تيرو ارتبط بجبهة التحرير الشعبية. إنه يبدو مثل مدرس صغير وديع غير عدواني. ما الذي يتخفي وراء ذلك؟ هناك —بالتأكيد— عناصر أخرى. أأنت على علم بها؟

تململ جربيه في مقعده، وهو يشعر بالضيق، وأخذ يُصقل صوته:

— اسمع يا دالبوا. أترك كل هذا على حاله، فأنت أول من يُحرك هذه المسائل منذ عشرين عاماً. ولن يفيد شيئاً، ولا أحد، إثبات أن مدرساً للتاريخ كان يخدم منظمة هدامة، وأن الدولة الفرنسية اختارت اغتياله. واليوم، هذه المعلومات تخص البلدين، فرنسا والجزائر. وليس من صالح الحكومات أن ترى عودة بعض الأشباح. واكتشاف مدفن عظام «كنشيلا» قدَّم الدليل على ذلك. فقد اكتشف الحفارون أكثر من تسعمائة هيكل عظمي خلال عمليات إنشاء ستاد لكرة القدم شرق الأوراس. وطبقا لكل الاحتمالات، فهو أمر يتعلق بجنود جيش بومدين الذين أعدمتهم «الفرقة» صاحبة المعسكر في هذا الموقع. تكتمت السلطات الجزائرية هذا الموضوع تماماً ؛ واستخدمت هذا الاكتشاف على الصعيد الداخلي فقط، دون أن تشن حملة معادية للفرنسيين بهذه المناسبة. وكان من الضروري انتظار «مُنَقِب

القاذورات» من صحيفة «ليبراسيون» ليتكفل بهذا العمل.

– تعني أنه يجب انتظار صدور «ليبراسيون» لنعرف أسباب موت روجيه تيرو؟

– لا. ليس هذا إطلاقاً! لنكن واضحين. فالشخصيات المتواجدة حالياً في السلطة –في فرنسا– أدانت عمل الشرطة في هذا العهد، في غالبيتها العظمي. فعندما تنبش في الماضي، لن تنجح الحكومة الجزائرية إلا في إثارة الهجوم ضدهم، وأنعاش المعارضة والضغينة. إنها ساعة النسيان، بل الغفران.

– لا أفهمك يا جربيه. فطالما أن القادة الحاليين انتقدوا الشرطة، والدور الذي جعلوها تلعبه، تصبح مناورة جيدة –بالنسبة لهم– أن يظهروا الملف ويمدحوا أنفسهم باسم الإخلاص لمبادئهم.

واضح أن جربيه لا تعجبه الصيغة التى أخذتها المحادثة. تزايد تململه في مقعده وبدأ يُلقي عليّ بنظراتٍ يائسة.

– كي اعترف لك بكل شيء، حقّقت الرقابة الإدارية في الموضوع –في أكتوبر ١٩٦١– تحت ضغط أعضاء المعارضة في مجلس النواب والشيوخ. تقريباً مثلما فعل بيجين إزاء مذابح صابرا وشايتلا. وتم انتداب سبعة قضاة تحت سلطة وزير الداخلية وقتئذ. وأنت لا تجهل أنه –اليوم– رئيس المجلس الدستوري ؛ مما يبرر إجراءات الحيطة والحذر التي يجب اتخاذها قبل لمس هذا الملف... لقد اضطر القضاة –ضمن أشياء أخرى– إلى إبداء رأيهم في أسباب وفاة ستين شخصاً، ذهب جثمانهم إلى معهد الطب الشرعي صباح اليوم التالي للمظاهرات. لابد وأن جثمان روجيه تيرو كان ضمن الحصة. والمصادفة أن هذه اللجنة قد تشكّلت بإلحاح من وزير الداخلية الحالي.

– والنتيجة ؟

– «للحفظ». أثبت في ختام التقرير أن الشرطة الباريسية قامت بواجبها في حماية العاصمة من تمرد شنته منظمة إرهابية. أشياء قليلة جداً أُعلن عنها. وهناك مجلدان عن أعمال هذه اللجنة ونتائج تحركات مجموعات التدخل المختلفة خلال هذه الليلة. واحد في الوزارة، والآخر هنا، في أرشيف الشرطة القومية.

نهض دالبوا وهو يبتسم.

– حسناً. هذا ما أريد الاطلاع عليه.

اصفر وجه جربيه تماماً ؛ وأخذ يعرق بغزارة. تكوّم في المقعد وكتفاه منحنيتان.

– هذا مستحيل. فلا أحد يستطيع الوصول إليه. وللوزير وحده الحق في إخراجه من الخزانة ؛ والإعلان عن مضمونه. تعرف المرسوم الخاص بنشر وثائق الدولة. خمسون عاماً من السرية المطلقة.

وليس في سلطاتي خرقه. وستتعفن بعض الملفات الخطرة، خلال قرونٍ بأكملها -قبل أن ترى النور. أنت تعلم -مثلي- أن الحكومات بحاجة إلى شرطة قوية وموّحدة. وطرح مسألة أكتوبر ١٩٦١ على الساحة العامة سينتج أثراً عكسياً. فسرعان ما سيبدأون في تقييم قرارات وزير الداخلية. أو ممارسات مدير المديرية. وإثارة اضطرابات كهذه في إدارة البيت سيزعزع استقرار نصف قادة قوات الأمن الجمهورية، فهي لا تزال تحت سلطة نفس الضباط. من يتمني اضطرابات كهذه؟ قطعاً ليست السلطة السياسية. وسيكون المكسب تافهاً بالقياس إلى فقدان الثقة الذي سيتعرض له جهاز حفظ النظام والجيش كله.

قرر دالبوا وضع حدٍ لعملية تعذيبه.

- ما نقدره في المحترفين من «م.ع»، هو معرفتهم العميقة بكل الملفات... اطمئن يا جربيه، لن أطلب منك كشف أسرار الدولة ؛ خاصة وأن عملنا ينحصر في خلقها! إذا كنت أفهمك تماماً، فالطريق كله مملوء بالألغام. وصراحتك تستحق التقدير. أليس هناك حقاً مصدر متاح؟

- المسألة ليست سهلة. أنا آسف. لا يبقى سوى الخطوات الكلاسيكية الأولى للمهنة: فحص صحف ١٩٦١ ، والمنشورات، وتصريحات المخبرين. لدينا مجموعة جميلة في الميكرو فيلم، بالإضافة إلى عدة آلاف من النسخ المصورة بإدارة السجلات الجنائية. لكن، لا شيء محدد. فقد حدثت مشاكل مع مصور القسم الذي يدعى مارك روسنير. كان عليه تغطية تدخل القوات الخاصة، لكنه لم يسلم أبداً الأفلام. على الأقل هذا هو الكلام الرسمي. وفي بداية الستينيات، لم يصل هواة التصوير والسينما إلى مستوى التطور الحالي. فليس لدينا إلا عشر أو خمسة عشر نسخ سلبية صورها بعض المارة. عدا هذا، فقد ثبت، وبشكل قطعي، أن فريقاً من التليفزيون البلجيكي -ر. ت. ب. ف- وخلال وجوده في باريس لتسجيل رحلة شاه إيران وفرح ديبا الرسمية للبلاد، قد صوّر فيلماً طوله حوالي ساعة، عن المتظاهرين وهم مختبئون في سياراتهم، ثم في أحد المقاهي. لم يدع التليفزيون البلجيكي أي شيء، وهذا هو التنازل الوحيد الذي قدّمه لنا... حاولنا شراء الأفلام فلم ننجح. أستطيع إعطاءك تليفونات المخرجين البلجيكيين وتليفونات روسنير...

قاطعته:

- بالنسبة لمارك روسنير لا داعي للتعب، فقد التقيت به خلال تحقيق سابق.

أرعبتني نظرة دالبوا وقد فغر فمه بينما انْغَرسَ جربيه أمامه:

- ما معنى هذا؟ ألست من يهتم بهذه المسألة... بأي صفة يجب أن أساعد هذا الأستاذ؟

شرح له دالبو طبيعة استجواباتي حول جريمة قتل برنار تيرو وولده. نجح بصعوبة في تهدئة زميله، ووعده بإطلاعه على أبحاثنا. وما إن أغلق الباب، حتى أخذ يوبخني.

- أتصرف بحيث أستخلص -بلطف- أقصى حد من المعلومات من واحد من المباحث، وأنت

ترد لي الجميل بهذا المقلب. يمكن الاعتقاد بأنك تتعمد ذلك... أفهم الآن لماذا لا تمكث طويلاً في نفس الموقع ؛ فالتخلص من أخرقٍ مثلك لهو إجراء أمني! قل لي -على الأقل- بأية طريقة تعرّفت على هذا المدعو روسنير. ذلك مهم لي.

– حدث ذلك العام الماضي، في كورڤيليه ؛ خلال قصة كئيبة عن عمليات مونتاج فوتوغرافي تستهدف توريط بعض الشخصيات المحلية. وبالصدفةِ، وقعت على مارك روسنير، الذي تولى الجانب التقني من المسألة. يبدو أن تجارته الرسمية لم تكن تدر عليه عائداً مرضياً.

– لماذا؟ ألم يعد يعمل لحسابنا؟

– لا ؛ منذ ١٩٦١. حكي لي شخص من إدارة السجلات الجنائية عن مشاكله مع رؤسائه. فقد سارت أموره بشكل سيئ، وذلك لهوايته العبث بالجثث بعد رحيل رجال المعمل..

– تقول أنه...

بدا دالبوا مرعوباً حقاً.

– لا. فقط يستمتع بتعديل الأوضاع، وبتكوين نوع من «الطبيعة الصامتة». ليس هذا شيئاً شريراً حقا. ولم تكن له عاقبة سيئة على عمله. تغاضي الكل عنه، عدا مدير المديرية، الذي قرر أن ينال منه. فى سبتمبر، تلقى روسنير إنذارين، وتم استدعاء مدير الهوية الشخصية. وليلة المظاهرة، كانت نوبتجية روسنير. يبدو أنه صوّر أكثر الاشتباكات خطورة. حكوا لي عن جزائريين خوزقوهم فوق حواجز المترو الهوائي، وعن عمليات اغتصاب في أقسام البوليس. واعتقد روسنير- بما معه من هذه المواد- أنه يمتلك ورقة رابحة، وتصوّر أن مدير المكتب سيبدي مرونة أكبر، فأخذ يتفاخر بالموضوع أمام بعض الزملاء. بعد ذلك ببضعة أيام، قام فريق من عمال «السباكة» بعملية في معمل تصوير المديرية وفي منزل روسنير. واستولوا على كل ملفاته وكل أرشيفه. ووجد روسنير نفسه بلا وظيفة، مطروداً لخطأ جسيم. بعدئذ، فتح ستديو للريبورتاج، وحفلات الزفاف، وتناول القربان في كورڤيلييه.

– هذا ما ينتظرك إذا واصلت دس أنفك في الموضوع.

– أنا لا أعرف أي شيء عن التصوير!

❖

وفي المصعد، بدأت أبحث عن وسيلة للهروب من دعوته. ليس لدي أي احتياج لمقابلة جيزيل دالبوا. القرية الصغيرة «على الطريقة الفرنسية» في الضواحي القريبة، حيث المنزل الصغير ذي الحائط الأسمنتي بالجراج الملتصق به وسقفيهما اللذين يحتاجان إلى ترميم. فقد تبدّت عبقرية دالبوا في

. خلال حديثه عن زواجي المحتمل، عندما جسّد واقعه لي خلال تربيته على بطنه. تلخصت
مدام دالبوا في الآتي: مائدة حافلة بالطعام. ولا أرى كيف ستنجح ليلة مملة كهذه في تغيير
سرت حتى محطة سان –ميشيل، وجلست في كنبة التاكسي –الخلفية– المحطّمة. رقد كلب
ي المقعد الذي واجهني. أخذ جفناه يرتفعان في أوقات متقطعة، وجسده يضطرب بحركة
نقبت في جيبي. ولكن ما إن أخرجت علبة السجائر، حتى شرع الحيوان في الدمدمة، وعوي

- لا يحب كثيراً التدخين في السيارة؛ وأنا كذلك. إلى أين؟

- كورڤيلييه، شارع دي لاجار، بعد أولني –سو– بوا.

- حسناً. يا لها من رحلة غريبة.

دار العداد ذا البيانات الرقمية. استغرقت في تأمل عميق لتحويلات الأرقام الحمراء، بحنين
بسبب سلاسة الانتقال بواسطة جزء من الرقم، من 5 إلى 6 ومن 8 إلى 9. أخذ السائق يحاول
ترات منتظمة– المبادرة بالحديث عن مساوئ القيادة المقارنة بين العرب والأفارقة. وعندما أصابه
ن صمتي، حاول عقد اتصال معاد للسامية، بلا نجاح كذلك؛ فلجأ –في ختام عرض
- إلى التأويل النغمي لنجاحات «سيرج لاما» الأخيرة.

قف الكلب فوق مقعده عند الاقتراب من أرض المعارض؛ وأخذ ينفض جسده. امتلأ «البيت»
لرمادي والأصهب. ربّت السائق على ظهر الحيوان بمحبة، ونجح في الإبقاء عليه بلا حركة.
لسيارة الطريق السريع لتطوف بورش مصنع «هوتش» الهائلة، ثم انطلقت في اتجاه المحطة.

- هاك. لقد وصلت. المطلوب ٦٢ فرنكاً، بالاضافة إلى ٢٠ فرنكاً للعودة.

نشت جيوبي وأعطيته الحساب بالضبط.

- حسناً. لست كريماً حقاً. والبقشيش؟ لمن؟

حنيت نحو نافذته وأنا أنفض سترتي وبنطلوني:

- إنه للكيّ بالبخار! سأحتاج إليه لأدفع ثمن التنظيف...

طلق التاكسي وإطاراته تصر صريراً عالياً. دار نحو مفترق الطريق السريع. لكنني ظللت أسمع
سائق ونباح كلب الرعي.

❖

الفصل الخامس

لم يتغير مظهر ستديو التصوير عما كان عليه منذ عام. دفعت الباب فأعلن جرسه عن وصولي. التفتت إليّ امرأة شابة، انهكمت في ترتيب أدراج خزانة بأفلام جديدة. سألتني عما أريد. خلا وجهها من العيوب، فقسماته منتظمة ورقيقة ؛ بينما تناثرت بعض بقع النمش الواضحة على وجنتيها البارزتين وتحت عينيها، وهي تعكس لون شعرها. لكن طبقات صوتها المنسجمة لم تنجح في طرد العصبية الحادة التي تثيرها تأتأتها الشديدة.

– أ... نتم، أنتم تر ...يدون؟

– أنا المفتش كادان، أتيت لرؤية الأستاذ روسنير. ألا يزال يعمل هنا؟

أخذت تؤدي واجب الرد عليّ. صررت على أسناني وضممت قبضتي يدي حتى لا أصرخ فيها لتكتب وتضع حداً لهذه المحنة

– و... والد... دي يقوم بربـ... بور تاج عن منـ... منتزه إيـ... باكس ... لحساب البلدية.

– شكراً. قولي له أنني أنتظره في «بار الأصدقاء».

لحق بي المصور بعد نصف ساعة. ضخم كعهده دائماً، ويرتدي طاقمه الأبدي من القطيفة السوداء المهترئة في الركبتين ؛ وكاميرا «ليكا» تتدلى من رقبته. بدا في حالة مزاجية جيدة.

– يا لها من مفاجأة أيها المفتش! كدت لا أصدق ابنتي. أتعود إلينا؟

– بل أعمل في تولوز. أنا أحقق في موضوع خاص... وتشاء الصدفة أن يذكروا اسمك أمامي في أحداث ترتبط بهذه المسألة.

انحنى نحوي. ودون أن ينطق بكلمة، أشار إليّ بمواصلة الكلام. لخصت له –بإيجاز– ملف تيرو.

– وما الذي تنتظره مني أيها المفتش؟

– أحب أن تحكي لي ذكرياتك في أكتوبر ١٩٦١، وخاصة إذا كنت قد تجوّلت بالقرب من فوبور بواسونير. لن أذكرك في التقرير. كلمة شرف. أريد أن أعرف ما حدث في هذه الليلة. لا أحد يريد الحديث عنها. وعملياً، لا يوجد أي أثر لها.. وبدون موت برنار تيرو في تولوز، لربما ظللت أجهل كل شيء.

دفع روسنير ظهر مقعده وأخذ يؤرجحه.

– ما الذي سيقدمه لك تنقيبك في الماضي أيها المفتش؟ أعتقد أنك لا تتوقع مني أن أعطيك اسم القاتل وأنا أجتر ذكرياتي. هذه الليلة استهلكت عشرات لا بأس بها من البكرات ؛ ثلاثمائة وخمسين صورة نجاتيف على الأقل! لا أذكر أنني طبعت صورة لأي أوروبي، عدا رجال الشرطة.

– أكان هناك قتلى بين قوات النظام؟

– لا. ولا واحد. ولا حتى جريح. لكن أفراد من قوات الأمن الجمهورية طلبوا مني تصويرهم في وضع الصيادين وقدم كل واحد منهم فوق جثمان واحد من الجزائريين. أثار هذا دهشتي حقاً عندما فكرت فيه. لم يكن مع المتظاهرين أية أسلحة. ولم يحاولوا –في أية لحظة– تنظيم أي احتجاج. وفي أفضل الأحوال، أخذوا يحاولون الهرب أو الاختباء في مداخل العمارات. وهذا ماتناقض –تماماً– مع المعلومات التي بثها مركز الاتصال. في بداية الاضطرابات، أعلنت لجنة التنسيق بين أقسام الشرطة –وهي نوع من إدارة للطوارئ مقامة في المديرية– عن عشرات القتلى من رجال الشرطة على يد جبهة التحرير الشعبية في المادلين والشانزليزيه. وعلى الفور، هرعت هناك في ناقلة تابعة للشرطة المتنقلة، كانت مركونة جانباً. أصبحوا كالمجانين عندما سمعوا الراديو. حيوانات ضارية حقاً. لكن، ومنذ هذه اللحظة، تلقى الجزائريون وابلاً من اللكمات. وخلال ربع ساعة، أحصيت ست جثث... دون ذكر الجرحى. ومن المادلين، توجهت إلى الأوبرا، حيث اشتعل الاقتتال في الحي كله .أتذكر أحد المشاهد: مجموعة من المتظاهرين تلاحقها قوات الأمن الجمهورية، تندفع نحو «كافيه دي لابيه» في بولفار كابوسين. لم تكن الشرطة بحاجة إلى محاصرة المقهى، فقد وفّر عليهم رواده والعاملون فيه هذا الجهد بطرد الهاربين منه. أتذكر ذلك –الآن– جزءاً جزءاً! توقفت –قبل ذلك الضبط– أمام مسرح «أوليمبيا» لتصوير حلقة تجمعات المتظاهرين المعتقلين. أرى اعلان الاستعراض... فقد التقطت له صورة. إعلان عن استعراض لجاك بريل. بعد ذلك بقليل، قادني كونستابل شمال بولفار الإيطاليون، في ريشيلو –دروو. وقفت عشرون ناقلة –تابعة للفرقة الثالثة لقوات الأمن الجمهورية– على أهبة الاستعداد للانطلاق في اتجاه شارع الجمهورية، فتابعت –بالتالي– تحركات الفرقة.

– دائماً على الموتوسيكل؟

– لا. في إحدى المدرعات. كانوا مسلحين حتى النخاع! بنادق، قاذفات قنابل، مسدسات ؛ علاوة على الهراوات. كلهم أرادوا التقاط صورة لهم قبل البدء في العمل. عدد لا بأس به منهم أدى الخدمة العسكرية في الجزائر. قاد السائق «ع.ح .ع» في منطقة وهران...

– قاد ماذا؟

– تشكيل عمليات الحماية العسكرية (ع. ح. ع). وهو نوع من الوحدة العسكرية –من خمسة عشر أو عشرين جندياً– مكلفة بمراقبة قطاع جغرافي صغير بهدف عقد اتصالات مع السكان

الأصليين... وبشكل محسوس، انحصرت مهمتهم في تفكيك شبكات مساعدة رجال المقاومة بكافة الوسائل. تحدثوا كثيراً عن التعذيب بالكهرباء، لكنه ليس أسوأ أنواع التعذيب! واستخدام ماكينة اللحام في خرق الكعبين ليس بعمل قبيح كذلك! آه. هؤلاء الـ .ع.ح.ع! في هذا الزمن، كانوا يعطونك —في مدخل حمام السباحة... ألم تعرف هذا أيها المفتش؟ عبوات الشامبو الفردية الصغيرة. غسيل رأس، غسيل مخ. لنعد إلى سهرتك. أقاموا حاجزاً من الناقلات خلف سينما «ركس» ثم بدأ الصيد في بهو «ميدي —مينوي». سأتذكر دائماً عنوان الفيلم الذي عرضوه هذه الليلة: «محصّل الجثث»، مع بوريس كارلوف وبيلا لوجوزي.

– لن أحتاج إلى الذهاب إلى مركز السينما.

توقف مارك روسنير عن الحديث، وأشار إلى صاحب المقهى ليأتي لنا بفنجاني قهوة آخرين.

– آه. نعم. لماذا؟

– يبدو أن روجيه تيرو حضر إحدى حفلات السينما قبل أن يُقتل. على أية حال، وجدوا معه تذكرة من «ميدي —مينوي» عندما عثروا عليه ميتاً.

– لا أفهم لماذا يدسون تذكرة سينما في جيبه... فلمدرس التاريخ الحق في الاهتمام بالخيالي.وبالنسبة لي، أديت المطلوب من عملي في هذا المكان وعيني ملتصقة بالعدسة. سأقول لك شيئاً، ما يهم الآن —في هذه اللحظة— هو الصورة. أنت لا ترى حقاً ما يحدث. فقط الضوء، الكتل، والإطار. والمصور ليس شاهداً، ففيلمه هو الذي يلعب هذا الدور. وفي لحظة الضغط على الزّر، تثبت الصورة، دون أن ندركها. تعرف صورة المراسل الصحفي من السلفادور —والذي صوّر جندياً يمسك به مسدداً نحوه بندقية؟ لقد صوّر في اللحظة المضبوطة تماماً، عندما ضغط الجندي على الزناد. قطعاً كان يعلم أنه يخاطر بحياته، لكنه لم يستطع تفسير الأمر، فقد سيطر الهدف على الشاشة. ربما صورت مصرع رجلك؛ لكن المؤكد أنني لم أره.

– لا تضغط على نفسك ياروسنير. أتفهّم —تماماً— ألا ترغب في مساعدتي؛ لا شيء يرغمك على هذا.

– أخطات أيها المفتش. أنا لا أهرب. السابع عشر من أكتوبر تاريخ هام بالنسبة لي، فهو يُحدد نهاية مهنتي كشرطي. سأضحكك، لكن هذا العمل كان يرضيني حقاً! لم أتحدث في ذلك مع أحد. فمنذ عشرين عاما عاهدت نفسي على نسيان كل شئ. اليوم، تفاجئني، وتجبرني على الاعتراف بأمر يهمني جداً. اعطني وقتاً لأجمع شتات ذهني. أعتقد أنني عبرت فوبور بواسونيير أمام «لومانيتيه»، وأخذت فنجان قهوة في بار «الجيمناز»، حيث كان يجلس فريق من التليفزيون البلجيكي. لم يصدقوا

أعينهم. عليهم الاكتفاء بالمشاجرات بين الڤالونيين[1] والفلمنديين[2]. احتموا خلف صندوق «جوك»[3]. أخذ المصور يواصل التصوير بلا انقطاع. وفي رأيي أنهم لم يطبعوا شيئاً يذكر. كان الوقت ليلاً. وطبعاً يصعب وضع مصفحات من الكشافات وتوجيهها على رجال الشرطة! أنا استخدمت الفلاش خلال عملي. بعد خروجي من المقهى، ذهبت إلى المسرح ؛ بجواره. كانت مجموعة من قوات الأمن الجمهورية تخرج منه حفنة من الجزائريين نجحوا في الدخول إلى الكواليس. مكثت هناك حتى الساعة التاسعة لأتنفس قليلاً. أعطاني المدير كأساً من الشمبانيا، فقد كانوا يحتفلون بالعرض الأول لإحدى المسرحيات، يبدو أنه اعتقدني مصوراً لإحدى الصحف.

– ألم تلاحظ أي شيء في الناحية الأخرى من البولڤار، في اتجاه شارع نوتردام دي بون نوڤيل؟

– لا شيء... أنا آسف أيها المفتش. عندما غادرت المسرح، ذهبت –رأساً– إلى قاعة المعارض التابعة لبوابة ڤرساي ؛ حيث يجمعون المتظاهرين المقبوض عليهم. لم تجد المديرية ستاداً كبيراً بما فيه الكفاية، ولا قريباً بشكلٍ كاف ؛ فسيبدو أمراً قبيحاً أن تسجن المعتقلين في ستاد «دي كولومب»[4]. وأخيراً، في بون نوڤيل، واصلوا إطلاق الرصاص في كافة الاتجاهات ؛ حيث سجلوا أكبر عدد من القتلى والجرحى.

– تقول إن المتظاهرين في «لاسيتيه» لقوا مصرعهم داخل المديرية؟ هذا مستحيل. لا يمكنهم أبداً الدخول فيها.

– لا شيء مستحيل في تلك الليلة المجنونة. اعترفت الحكومة بثلاث أو أربع حالات وفاة... رقم يجب مضاعفته إلى خمسين ضعفاً –على الأقل– للاقتراب من الحقيقة. فقد استدعوا فريقاً من معهد الطب الشرعي –حوالي الساعة الثانية صباحاً– في الثامن عشر من أكتوبر، ليتسلم ثمانية وأربعين جثة دفعة واحدة، في الحديقة الصغيرة الموجودة بالقرب من «نوتردام»، قبل العمل في موقف السيارات الأرضي. لم يمت أي واحد منهم بالرصاص. كان التشخيص واحداً بالنسبة للجميع: الضرب بالمطرقة. وطبقاً لشائعات قوية، تم نقل مسئولين من جبهة التحرير الشعبية –مباشرة– إلى «لاسيتيه» للاستجواب. ظلوا تحت المراقبة، في مكان ما بالطابق الأول، عندما دخل القاعة –فجأة– جمع من رجال الشرطة ورشاشاتهم مصوبة نحوهم. اعتقد الأسرى أن ساعتهم الأخيرة قد دنت، فاندفعوا نحو الباب الخلفي، الذي انفتح تحت ضغطهم. وتصادف أن هذا الباب يؤدي –مباشرة– إلى القيادة العليا لمدير المديرية. لا مجال لإطلاق الرصاص.

---

(١) من منطقة ڤالونيا في بلجيكا.

(٢) من فلندريا.

(٣) صندوق «جوك» صندوق يحتوي على اسطوانات يختار منها الناس ما يشاءون عند انزال العملة في ثقب خاص فيه.

(٤) ستاد حمام السلام.

سمع مدير المديرية –والمحيطون به– هذه الجلبة خلال تنسيقهم لعمليات القمع. وفوراً اعتقدوا في حدوث هجوم من جبهة التحرير الشعبية، فوجهوا كل حرس «لاسيتيه» المركزي ضد السجناء. والنتيجة ٤٨/ صفر! نتيجة جميلة. بجوار أرقام كهذه، تبدو أخطاء اليوم تافهة حقاً! أحكي لك كل هذا –أيها المفتش– رغم أنه لم يرد ذكره رسمياً أبداً، ولا أي دليل ولا أي أثر للثماني وأربعين جثة: لقد وجد المعهد سببا حقيقياً وجاداً لتفسير كل وفاة. إدارة مهملات التاريخ. الأفضل –للجميع– أن يظلوا في القاع! لا تتسل بانتشالهم إلى السطح. سيفعلون مثل دراكولا ويعيشون على دمك أنت.

لأول مرة يفقد روسنير مظهره الساخر الذي بيديه باستمرار. نهض وهو يستند على المائدة:

– أيها المفتش، أنت ماهر في دس أنفك في الأعمال القذرة. لكن، ليس بتحريك الطين تستطيع الخروج منه...

– كيف إذن؟

– بأن تغرِق فيه الآخرين، بكل بساطة.

❖

عُدت إلى باريس بقطار الضواحي ؛ ونزلت محطة «جار دي نُورْ» قبل الخامسة بقليل. أخذ المسافرون القليلون يحثون الخطى نحو مواقف الأتوبيسات. عبرت أروقة المحلات واتجهت نحو الساحة. كان الميدان الرمادي خاوياً. وأمامي، سارت امرأة شابة شعرها أحمر. راقبت –شارد الذهن– حركات ساقيها. في كل خطوة تخطوها يتمدد قماش جونلتها، فأرى علامة ملابسها الداخلية الخفية، والموجودة –رغم هذا– بطريقة لا تصدق. يبدو أن إلحاح نظرتي أصبح من القوة إلى حد أن دفع المرأة للالتفات نحوي، وفحصي من قمة رأسي حتى إخمص قدمي، وهي تثبت بصرها – من قبيل التحدي– على ما بين فخذي. كانت ترتدي تي شيرت مطبوع عليه اسم ناتالي. ابتعدت في اتجاه محطة «جار دى لاست».

راودتنى فكرة زيارة مدام تيرو، ثم تخليت عنها. بدا لي من اللائق أكثر أن أطلب منها موعداً، وأترك لها حرية اختيار ساعة ومكان لقاءنا. أسندت كوعي على بار «ڤيل دى بروكسيل» لأطلب بيرة «جيز»، عندما اخترقت ذهني فكرة فجائية. فتحت مفكرتي وسألت الجرسون أن يطلب رقماً في بلجيكا. وبعد خمس دقائق، سألتني عاملة سويتش راديو وتليفزيون بلجيكا الفرانكفوني عما أريد.

– أود الحديث مع السيد دريل أو السيد تيرلوك ؛ من قسم التحقيقات والريبوتاچ ؛ وذلك بخصوص فيلم أخرج لمجلة «تسعة مليون».

– لم يعد لهذه المجلة وجود فقد تخطينا العشرة ملايين نسمة ؛ وقد خرج الأستاذ تيرلوك على

المعاش العام الماضي. أستطيع أن أجعلك تتصل بالسيد دُريل، المسئول عن أحداث الساعة لجريدة المساء.

حرصت على ألا أجيبها لأتجنب الاستماع إلى تاريخ الجريدة الناطقة. حصلت على تليفون مكتب جان دُريل.

– آلو. هنا المفتش كادان من تولوز. أحقق في مصرع شاب، مات والده أيضاً أثناء أحداث أكتوبر ١٩٦١، في باريس. لدينا قليل جداً من الوثائق في فرنسا ؛ أقصد الوثائق المتاحة. وأرغب في مشاهدة الأفلام التي سجلتوها في تلك الفترة.

– هذه مفاجأة، وخاصة من شرطي... منذ عشرين عاماً، بدأت أقتنع بلامبالاة العدالة الفرنسية إزاء هذه الوثائق. أنا مستعد لوضعها تحت تصرفك. لنحدد موعداً.

– حسناً. أنا في محطة جار دي نُور، والقطار التالي، المسافر إلى بروكسيل، يغادر المحطة الساعة ٥,٤٥ دقيقة بعد الظهر. أستطيع مقابلتك بدءاً من الساعة الثامنة مساءً.

– يسرني التعرُّف على رجالٍ جادين مثلك أيها المفتش، اتفقنا إذن، لكن لاتأت إلى مدينة التليفزيون في بولفار ريز، فلن أكون هناك. نحن نصور بعض المشاهد في سوق البراغيت[1] بميدان جيو دي بال، على بعد دقيقتين –بالتاكسي– من محطة جار سنترال. لن تضل الطريق إلينا. ستجد هناك ثلاث لوريات للمعدات، وعربة المنتج. ما الذي تريد مشاهدته بالضبط ؟ أعدّ تيرلوك مونتاجا –مصحوبا بتعليق، يستغرق حوالي عشر دقائق ؛ ولم يعرض أبداً في القناة التليفزيونية. أعتقد أن سفيركم لعب دوراً في هذا! وإلا فنحن نحتفظ –في الارشيف– بالفيلم الخام كله ؛ حوالي ساعة من الصور الصامتة.

– لا يهمني المونتاج، ساكتفي بالتصوير المتواصل. إلى أن نلتقي –إذن– في سوق البراغيت.

لا نحتاج إلى أكثر من عبور الحدود لنعتقد أننا في قلب المغامرة: كامبري، ڤالنسين، مونز! ابتهجت –مقدماً– بهذه الهجمة على الأراضي البلجيكية. الغارة السابقة ترجع إلى عامين. وقتئذ، كنت أعمل في هازيبروك، وأعاني من أكثر حالات اليأس فداحة ؛ فأجنح كثيراً، بالتالي، إلى حانة تغلق أبوابها عند الفجر. وذات أمسية من أمسيات الاكتئاب أقسمت لمديري أن أحتسي قهوتي في بروكسيل وأعود للإفطار. كان بإمكاني القيام بمجرد نزهة في الريف ثم العودة وحكاية أية قصة، فلن يطالبني أحد بأكثر من حساب أجر ليلة إضافية. لكنني أضفت إليها وعداً بالعودة ومعي فاتورة المقهى. ليس لهذه المغامرة أي شيء مشترك مع هجوم باريس –داكار[2]. لكنها أثرت على زبائن هازيبروك ؛ الذين لم يسبق للبعض منهم رؤية البحر أبداً، والذي يقع على بعد خمسين كيلو متراً منهم، إذا اتفقنا أن نسمي «بحراً» ما يأتي بعد الشاطئ، في اتجاه دانكرك. براي لي دون، شاطئ لوون، ويسان، وامبلتوز! فرق كبير

(١) سوق الأشياء القديمة.

(٢) «باريس – داكار» سباق سيارات مشهور.

بينها وبين أسماء في شهرة سان تروب، راما تويل، أو جوان لي بينز.

كان عليّ اجتياز ثلاثمائة كيلو متراً. انقضى الذهاب بلا مشاكل. وصلت بروكسيل عن طريق تورني. وجدت نفسي في قلب مدينة منكوبة، مبقورة في كل مكان، تتشابك فيها الحفر بتحويلات الطرق، بالاتجاهات الممنوعة. احتجت حوالي ساعة لأصل إلى المدينة القديمة، حيث لافتة هائلة تخبر الزوار بالمدة المرجحة لأعمال الحفر بالمترو، وتشكرهم على حسن تفهمهم. لم أجد دكانا واحداً مفتوحاً! وعمق غياب الحياة هذا -أيضاً- من انطباعي بعبور مدينة في حالة حرب. أخذت أتجنب كل المطبات المرصودة في طريق «الخلد البلجيكي». ركنت السيارة بالقرب من جراند بلاس، حيث فانوس أحمر يلمع تحت الممر ذي البواكي. اقتربت من الواجهة ذات الإضاءة الخافتة، وأنا أحلم -مقدماً- بالصوت المكتوم لكوب البيرة الطازجة من البار. دفعت الباب متأهباً للصياح بطلبي من البارمان. لم تقل دهشة شرطة الدوام، التابعة لقسم شرطة الحي، عن حجم دهشتي أنا.

لم أتعلم -فقط- هذه الليلة، أن المصباح الأحمر، ذا الضوء الخافت يعني، لابد أن يشير إلى وجود قسم شرطة «جراند بلاس». علمت -أيضا- أن مسماراً من النحاس (بل وأكدوا لي أنه من الذهب). مثبت في قلب ساحة كنيسة نوتردام دي باريس، يرمز إلى نقطة طرق فرنسا القومية الرئيسية. عند العودة، بالقرب من «هال»، وفي بار بإحدي الضواحي، جلست فوق مقعد بار عال، بالقرب ممن اعتقدت -للوهلة الأولى- أنه طائر فلَندري... أخذت أحاول التعرف على الأمكنة وأنا أحتسي البيرة الموعودة: فإذ بي في بيت للدعارة بالضواحي، وإذ بطائري الفلندري يتحول إليى «دجاجة»[1] ترتدي الموسلين الوردي، وتنتظر -بصبرٍ نافدٍ- وصول مسافر متأخر.

حكى لي صاحب المقهى -وهو في حالة بوح- أنه عاش في باريس قبل الحرب، وعرض عليّ بضع زجاجات خمر تفاخر بأنه بائعها الوحيد. لم يكف عن كيل المديح لشراب الكيرش[2]، وأجبرني على شربِ نخب الصداقة الفرنسية- البلجيكية، ثم رسم الخطوط العريضة لموقع مسمار نوتردام...

دخل القطار المحطة الرئيسية بعد الثامنة بقليل. أخذت تاكسياً وذكرت له ميدان جو دي بال.

- كويس جداً يا أستاذ. هو أمامنا مباشرة ؛ لكن يجب الدوران عبر سان جوديُل بسبب الأشغال.

- أشغال المترو أيضا؟

- آه. لا. هذه انتهت. أشغال توسيع محطة القطار. هاك. ها هي كنيسة سان جوديل! بين مبنى بنك بلجيكا الوطني ومبني شركة الطيران «سابينا». إنهم يحطمون كل شئ في هذه البلاد، وكأنهم

(١) Poule، أي مومس بالفرنسية الدارجة.
(٢) مشروب كحولي من الكرز.

– عندكم– قرورا غرس عمارات «لاديفانس»[1]. فوق كنيسة نوتردام ومن الجهتين... قريباً سيضعون المانيكان «بيي» في مراخيص عامة[2]، وسيلزم أن تدس له عملة لتراه يتبول!

أنزلني عند تقاطع شارع «هو» وشارع «ينار». كان الميدان محاصراً بكردون من رجال الشرطة. وما أن ذكرت اسم دريل، حتى انفتح الحاجز. اتجهت مباشرة نحو لوري المنتج المتوقف في ناصية شارع بلاس. وعبر نظارات مستديرة مطوقة بالحديد، حدّق في رجل في الخمسين من عمره، وشعره الأشيب يتموج فوق كتفيه.

– أنا على موعد مع السيد دُريل، المخرج.

– وصلت في ميعادك بالضبط أيها المفتش. إنه أنا. أمهلني دقيقة وسأكون تحت تصرفك. يجب أن أسجل بعض التعليمات بالنسبة لحركة رافعة الكاميرا.

تابعته ببصري. أخذ يحرك رأسه، وذراعيه، وشعره، وسط مجموعة من الفنيين، يُصدر الأوامر ويستمع إلى الاقتراحات. عاد إلى اللورى الذي لم أغادره.

– حدثتني عن سوق البراغيت في التليفون. توقعت رؤية ميدان تجتاحه المنصات والسيّاح!

– هذا ما سيحدث غداً صباحاً أيها المفتش. نحن نصور المساحات الخالية دون وجود أي كومبارس. ستتجول الكاميرا عبر الواجهات والأرض وهي تتبع خط سير محدد. وستقطع المسافة –مرة أخرى– عندما يبدأ العمل في السوق، وهو في ذروته، غداً. لم تأت إليّ من باريس –على وجه السرعة هكذا– لمشاهدة موضوع معرفتك به لا تقل عن معرفتي تماماً! لم يخترعوا سوق البراغيت في بروكسيل!.

– لا. وليس لدي كثير من الوقت.

– لست أول فرنسي يهتم بهذا الفيلم عن المتظاهرين الجزائريين. حاولت أقسام الأمن –في بلادكم– شراء النسخة الأصلية، والنسخ المنقولة من هيئة إذاعة وتليفزيون بلجيكا الفرانكفوني، لكن الإدارة قاومتهم. لا أظن أن المسئولين عن المذبحة توقعوا افتضاح أمرهم بهذا الشكل الدعائي المكثف لنتائج أوامرهم... هذا طلب يرجع إلى أكثر من عشرين عاماً. بالضبط عقب حوار سريع أجرته صحيفه «لي سوار»، مع تيرلوش. في ذلك الحين، أكاد أجزم أن العالم كله لم يعلم بوجود مثل هذه الأفلام.

– عدا إدارة قناتكم.

– استطاع التلفزيون البلجيكي التحرر من السلطة السياسية قبل نظيرة الفرنسي بكثير.. لا أحد

(١) Sanisette مراخيص عامة على هيئة كابينة تعمل بالعملة.

(٢) La défense عمارات مشيدة بأسلوب معماري شديد الحداثة

يضغط على الصحفيين ليرغمهم على سحب موضوع ما.. وللأمانة المطلقة، فإننا لم نكن في باريس لتغطية هذه المظاهرة، وانما لمتابعة سلسلة حفلات «جاك بريل» الموسيقية على مسرح «الأوليمبيا». أذكر أنه كان قد تقرر أن يبدأها صباح اليوم التالي، لمدة خمس عشرة ليلة، وأنهم ألغوا حفل الافتتاح لارتباط بريل بعقد سابق، مساء ١٦ أكتوبر، في قاعة استقبال كبار الزوار بوزارة البحرية. إعلان رائع! جاك بريل، شارل ترنييه، وأوركسترا هيليان و... فرح ديبا! نجحنا في الحصول على دعوات لحفل الاستقبال بالسفارة البلچيكية. ألم تشاهد رحلة شاه إيران وفرح ديبا الرسمية في فرنسا؟

– لا. إنها متعة لم يسمحوا لي بها!

– أنا طفت بكل صفحات مجلة «بوتان» في بلجيكا. لن أحكي لك. ولكن أن ترى الحرس الجمهوري يقف في موكب الشرف تحية لامبراطور بلاد فارس، شيء صعب الإدراك. لم أفهم أبداً ما الذي ورَّط «جاك الكبير» في مثل هذه الاعمال!

أصبحنا في عربة المنتج. جلس دريل أمام جهاز توقيت موصول بالمونيتور(★) ووضع فيه كاسيت.

– لقد راجعته. يستغرق ساعة وسبع دقائق. إذا شدَّ انتباهك مقطع أو مشهد –أكثر من غيره– فيكفيك تدوين رقم العداد. يمكننا طبع بضعة صور منه. أتركك ؛ فلدي بعض الأعمال الهامة.

تتابعت الصور. كلها يصعب الدفاع عنها الواحدة أكثر من الأخرى. صُوِّر الجزء الأول من الفيلم التسجيلي من داخل سيارة تتجول عبر باريس. دارت اشتباكات عديدة بين متظاهرين مجردين من السلاح، اربكتهم البلادة ومجموعات قوات الأمن الجمهورية المتلاحمة والحرس المتنقل الحازم المتأهب. ضاعف غياب الصوت من ثقل مشاهد العنف.

فجأة، توقفت السيارة. وبهدوء، وقفت بمحاذاة أحد الأرصفة. أتاحت لي حركة بانورامية واسعة، نفذها المصور، من رؤية بوابة لاڤيلات ؛ حيث المجازر القديمة، وجناح «بنك جراڤيرو» الحجري. انتهى المشهد بمساحات حوض لاڤيلات السوداء ؛ حيث تلتقي قناة أورك بقناة سان –دني. ارتفعت الكاميرا بغتة. قام المصور بحركة زوم ليفحص مجموعة من الرجال يتوجهون إلى شارع كورنتان كاريو، في اتجاه سياج الجسر. التمعت معاطفهم الجلدية والخوذات تحت المطر. فجأة، ألقي بجسم في الماء. شعرت أنني أسمع صوت ارتطام الجثة خلال ملامستها للسطح السائل. تلتها جثة أخرى، ثم ثالثة. تكررت الحركات نفسها إحدى عشر مرة، ثم –مرة ثانية– الأضواء من جديد، وواجهة «ركس» الفخمة وإعلان «مدافع ناڤارون»، ثم إعلان –من لونٍ واحدٍ– على شبكة حديدية– عن أول مكنسة شافطة «تورنادو»، يحجب نصفه دعاية عن موسوعة أسبوعية: «اعتباراً من ٢٥ أكتوبر «الكون كله» «بخمسين فرنكاً أسبوعياً».

(★) Monitor، شريط مغناطيسي لتسجيل صور التليفزيون.

أظهرت لقطة مقربة تفاصيل وجه امرأة جزائرية سرعان ما حجبه زي رسمي أسود. وعندما انزوى الشرطي، حلّ وجه رجل محل وجه المرأة. وهوت المطرقة. تغيرتِ زاوية التصوير مرة أخرى. احتل الجزء العلوي من علبة «جوك» جانباً من الصورة. يحتمل أنه المشهد الذي تحدث عنه روسنير هذا الصباح في كورڤيليه.

طوقت وحدة من الحرس المنتقل حفنة من المتظاهرين. وأبعد قليلاً، وقفت سيارة هيئة الأتوبيسات الباريسية في اتجاه شارع سانتيي. وبقسوة، قادوا الجزائرين إليها. غادرت الأتوبيسات الموقف، الواحد تلو الآخر، ممتلئاً عن آخره. تدلت بعض الأجساد –بشكلٍ خطر– من الجزء الخلفي منه، وكل سائق، وحده مع حمولته البشرية. مائة، مائة وخمسون سجيناً. لم يحاول أى منهم الهرب أو تخليص زملائه؛ فباريس محاصرة، وكل محاولة للفرار محكوم عليها –مسبقا– بالفشل.

انتقلت الكاميرا نحو اليسار، وصعدت بولڤار بون نوڤيل. راح المصور يتأمل تفاصيل واجهة قهوة مادلين –باستيل، ثم توقف عند تقاطع شارع ڤيل نوف.

أخذ رجل من قوات الأمن الجمهورية يسير ببطء على الرصيف وقد خلع معطفه، غير مبالٍ بما لهذه الحركة من غرابة في قلب حي فريسة للهياج الشعبي. بدا غير عابيءٍ بالمعارك الضارية التي تدور حوله، تماماً مثل تجاهله للمطر. لم يركز المصور على هذا المشهد الذي يدعو للدهشة. تراجع عدة أمتار إلى الوراء ليلقي نظرة على جسد جريح. مرّت ثلاثون ثانية لا نهاية لها ؛ قبل أن تستأنف الكاميرا سيرها. لازال رجل قوات الأمن الجمهورية يتقدم بخطواته المتزنة. تجاوز شارع توريل. وعندما بلغ مستوى شارع نوتردام دي بون نوڤيل، توقف قليلاً، وكأنه تردد، ثم حوّل اتجاهه وارتقى السلام. هناك، وقف رجل آخر، ذراعاه محملتان بباقة ورد وعلبة جاتوه. أتي رجل قوات الأمن الجمهوية ووقف بجواره.

وفي مقدمة الصورة، أخذوا يجمعون الجزائريين وأيديهم خلف أعناقهم. احتاج النقيب لكل قواه لمنع رجاله –الذين لم يتوقفوا من شدة هياجهم وإثارتهم –عن ضرب الجزائريين. تتالت اللقطات المأخوذة أمام أوبرا باريس، حيث أقامت الشرطة حاجزاً أميناً لحماية مشاهدي باليه «الهند الأنيقة»، ثم أصبحت الشاشة خاوية. ضغطت على زرار الإيقاف وانتظرت عودة دريل. رأيته عبر النافذة يفحص اتجاهات الكشافات ويعيد ترتيب أعمدتها. أنهى استحكاماته، وأتى ليلقاني في الشاحنة.

– حسناً أيها المفتش... مفاجأة؟ يبدو عليك السرور

– نعم. تعرفت على الرجل الذي أبحث عنه. الصورة موجودة برقم ٨٣، عند نهاية الشريط. إذا أدرت الجهاز، سأدلك عليه.

شاهد عرض الجزء الأخير، ثم أخرج الكاسيت وطلب من أحد مساعديه الذهاب إلى الاستديو

ليطبع صورة بروفة من المشهد الذي يتكئ فيه رجل قوات الأمن الجمهورية على السلالم ؛ بالقرب من روجيه تيرو. ثم أمسك بي من كتفي.

– أدعوك إلى العشاء أيها المفتش. لن ترحل من بروكسل دون تشريف مطبخنا. لازال أمامهم ساعتان لضبط الصور. كم هو جنوني الوقت الذي نضيعه في الانتظار! لكن، هكذا السينما. فلديك خمسون شخصاً تتحمل مسئوليتهم، ويعملون الواحد تلو الآخر. وكل واحد منهم يشارك بلمسته الشخصية. مهنة لا عيب فيها. ومغزى القصة هو أن المخرج هو الذي يذهب ليأكل ويتلقى المجاملات عند عودته! هيا. تعال سأصحبك إلى «ماي ڤازير موستاش»[1]، فلا يوجد مثله في فرنسا. سينما قديمة أشهرت إفلاسها واشترتها رابطة طلابية. وبدلاً من المقاعد، وضعوا موائد خشبية ومصاطب مصفوفة على التوالي. يقدمون المأكولات البلجيكية المشهورة. وكل ربع ساعة، يطفئون الأنوار ويعرضون أفلاماً صامتة قصيرة: لوريل وهاردي، هارولد ليلود، شارلي شابلي، أو «ملك» لباستير كيتون. مرتين أو ثلاث، يمنحون فرصة لأحد المغنيين أو لإحدى المجموعات –غالباً من الذين يتسكعون في ميادين المدينة: انجليز، ألمان، يابانيين. الخلاصة؛ يقدمون كل القوميات.

وعلى المائدة، نصحني بطبق «نامور»: سمك الثعابين بالـ «اسكاڤيش». وطلب لتراً من «كريبك» لكل واحد منا.

– سترى. إنه ذائع الصيت. سمك الثعابين البحرية ؛ المنقوع في الخل قبل تحميره. يقدمونه بارداً ومثلجاً. أتعرف أن نفس النهر هو الذي يروي العاصمتين؟

– لا. أخطأت. نهر السين ينبع من ناحية ديجون، ويصب في المانش، بين لوهافر وهوفليير، دون أن يغادر الأراضي الفرنسية

انطلق في ضحكة صاخبة.

– آه. لازلتم ذوى حساسية مفرطة عند الحديث عن بلادكم. فالسين –بلا شك– لا ينساب بين الواجهات البورجوازية لميدان بروكيير. ولكن، على نحو ما. فنهرنا اسمه السنّ، بنون مشددة. نجوت بأعجوبة! بروكسيل مدينة جديرة بـ «الفونس آليه»[2]: لنأخذ مثلا بولڤار الدائرة الصغرى، والذي يستخدم تصميمات الحصون القديمة. إن بولڤار «ووترلو» ليس بعيدا عن «الأبتوار»[3].

بعد أن التهمنا الثعابين، عدنا إلى ميدان جول دي بال، حيث كان في انتظارى النجاتيف المأخوذ

(١) My Father MousTache

(٢) الفونس آليه: ALPHONSE ALLAIS كاتب فرنسي (ولد في هوفلير ١٨٥٤ –مات في باريس ١٩٠٥ ألّف عدة حكايات هزلية صغيرة، من أشهرها: «تحيا الحياة» Vive La vie (١٨٩٢)، «ولسنا بقر» On n'est pas des boeufs (١٨٩٦) وقد ارتكزت فكاهته على المنطق العبثي.

(٣) المجازر

من الريبورتاج. استدعى دُريل تاكسياً وأصرَّ على تسديد حساب المشوار مقدماً. وعدته بإطلاعه على ما يطرأ في تحقيقاتي.

ظهرت آثار لتر البيرة في القطار المنطلق إلى باريس. أدركت لماذا اختار هذا الشعب المانيكان «بي» شعاراً له.

❖

الفصل السادس

وافقت مدام تيرو على استقبالي فيما بعد ظهيرة اليوم التالي. استفدت من الساعات القليلة التي تسبق الموعد لأتنزه في باريس. وصلت البولڤار قبل الأوان، وكررت -لا شعورياً تقريباً- الجولة التي قام بها رجل قوات الأمن الجمهورية منذ عشرين عاماً مضت، في الوقت الذي صوره السينمائيون البلجيكيون. أشياء قليلة تغيّرت منذ ذلك الحين، عدا إعلان «ركس» عن فيلم كارتون لوالت ديزني ؛ وكافتيريا «لومانيتيه»، التي تحولت إلى «بيرجير كينج».

عبرت البولڤار أمام مقهى «مادلين -باستيل» الذى شغل الجزء الأكبر من الرصيف. هبطت مجموعة من السياح اليابانيين -يرتدون قمصاناً خفيفة وصدريات بيضاء- من أتوبيس «باري ڤيزيون» -ذي الطابقين- وهم يشيرون -بأصابعهم- إلى مسرح «الجيمناز» ؛ حيث احتل قوصرة(★) مدخله عنوان عرض مسرحي لجي بيدوس. ولدهشتي الكبرى، دلفت المجموعة كلها إلى البهو خلف المرشد. سرت في اتجاه بوابة سان -دني، وتجاوزت شارع ڤيل -نوف، ثم شارع توريل. فشارع نوتردام دي بون نوڤيل لا يفضي إلى البولڤار ؛ فهو يقع على ارتفاع بسيط، ويستند -في هذا الجانب- على نوعين من السلالم: الأولى واسعة ومقوّسة قليلاً، والثانية ضيقة ووعرة. وعند عبورنا لأي من سلالمه القليلة، نصل إلى حي آخر، يختلف تماماً عن أي بولڤار كبير. وبدلاً من بريق اللافتات ونيون المقاهي، يسود الاضطراب الفوضوي لصناعات الاستهلاك. من شارع بوريجار، تبدأ مملكة الملابس. عالم ماهر وبارع من الحائكات، والمطرزات، والخياطات، والمرتقات، اللاتي يبدين في مظهر كبار المستهترات أغلب الأحيان، والقادمات من سهول الأناضول والنيل أو من المناطق الآسيوية الصغيرة، والناجيات من منفى الهند الصينية. عمال مخازن باكستانيون أو بنجاليون، بعمامة ناصعة البياض فوق رؤوسهم، ينقلون أتواب الأقمشة الضخمة، وعرباتهم تمر من الرصيف إلى الشارع متجنبة الكلاب والسيارات والمارة.

أما شارع نوتردام دي بون نوڤيل -المحاصر بين الشوارع الرئيسية وشارع بوريجار -فقد شكّل- على حدة- جزيرة صغيرة من السكينة. فحضور الكنيسة الهائل -والذي أخذ منها اسمه- له دلالة كبيرة جلست في مقهي «دي كانز مارش»، وطلبت كوبا كبيراً من البيرة قدمه لي صبي أكتع. ظللت أتابعه ببصري دقائق طوالاً، مذهولاً بمهارته في عصر الليمون، واعداد «الهوت دوج»، ووضع الزبد في سندوتشات لحم الخنزير المفروم، وجمع الكؤوس وأرغفة الفينو بيده المعّوقة. أسند صاحب المقهى مرفقه أمامي. تنقلت نظرته بسرعة -ذهاباً وإياباً- بيني وبين البارمان.

- يُدهشك، هه! أول مرة تأتي هنا؟

(★) القوصرة: مثلث في أعلى واجهة المبنى.

أجبته بنعم.

– إنه يبهر الزبائن بغرابته، ثم يعتادون عليه ؛ مثل كل شيء .

أشار إلى البارمان بحركة من ذقنه.

– إنه مثلي من قدامى العاملين بترسانة الأسلحة. عملنا معاً في متفجرات النيتروجلسرين. لقد خرجت منها سليماً معافىً! لكن حظه كان أقل مني. أنا نفذت بيدي، أما هو فتركها... المزاح ضروري!

– كيف وقع هذا؟ حادث؟

– نعم. في البدء لم نفهم. كان ينقل النيتروجليكول طوال النهار –منذ أعوامٍ– مثلىء ؛ دون أي حادث. ثم في أحد الأيام، وفي أولى ساعات العودة إلى العمل بعد الإجازات، إذ به يسقط قارورة. وبدلاً من أن يختبىء ويحمي نفسه، حاول الإمساك بها. وها هي النتيجة...

– نعم. إنها مخاطر المهنة.

– نعم. يا أستاذ. هذا أيضاً ما قيل. ولكن أشخاصا من البحث العلمي لاحظوا –من إحصائياتهم– أن هذا النوع من الحوادث أكثر تكراراً يوم الإثنين أو عند العودة من الإجازات. وعندما تمعنوا في الأمر، أدركوا أن النيتروجليكول يؤثر على القلب. إلى حد ما مثل المخدرات! وهذا حقيقي فأثناء عملنا كنا نشعر أننا في أحسن حال، والنقيض خلال عطلات نهاية الأسبوع والإجازات. يبدو أن بخار النيترو كان ينقصنا. ومنذ ذلك الحين، ابتكروا دواءً قاعدته من النيترو جلسرين لمرضي القلب وهو يوسّع الشريان التاجي...

– الخلاصة أن رجلك ليس ضحية إصابة عمل. يده ارتعشت نتيجة مرض مهني!

– حسناً! لم تخطر في بالي هذه الفكرة...

غادرت مقهى «ديكانز مارش». بعد أن دفعت ثمن مشروبي. وفوق منصة الحداد، المتكئة على منفذ السلالم، تعهدت لافتة بصنع «المفاتيح في دقيقة»، بينما ذكرت ورقة ملصقة على الزجاج أن «الحداد يعود خلال ربع ساعة».

شغل الرقم خمسة من شارع نوتردام دي بون نوفيل مبنى باريسياً قديماً معتنى به، تكتسي نوافذه بالشيش المفرّغ. وعلى الحائط، على يسار باب الدخول، لوحة من الرخام الأبيض مكتوب عليها –بأحرفٍ من ذهب– «المقر الاجتماعي للنقابة القومية لمستخدمي الرافعات». اجتزت الباب بعد عبور حديقة صغيرة أفضت بي إلى ردهة بهو العمارة. كان مثلث المدخل مزيناً بنقشٍ بارز مضحك، مستلهم

من اليونان، يمثل عازف شبابّة وعازف فلوت. ألصقت قائمة المستأجرين -بشكلٍ ظاهرٍ- على زجاج حجرة البواب، ومعها البيانات اللازمة عن طابق كل منهم ورقم الشقة. صرّت السلالم الخشبية المصقولة تحت خطواتي. ازدان الطابق الأول بمرآة واسعة يحيطها إطار ذهبي، ولوحة ريفية يسودها اللون البني. وصلت إلى الطابق الثالث وأنا ألهث قليلاً. طرقت الباب عدة مرات بقوة قبل أن تقرر مدام تيرو الرد عليّ. تعاقبت أصوات لثلاثة أقفالٍ، ثم انفتح الباب -بضعة سنتيمترات- وقد حجزته سلسلة الأمان.

- مدام. أنا المفتش كادان. حدثتك هذا الصباح...

انغلق الباب فجأة، إنه الوقت اللازم لرفع السلسلة. أخيراً نجحت في الدخول إلى الشقة.

لم تتخط أرملة روجيه تيرو الخامسة والأربعين من عمرها. لكن حياة العزلة الإرادية حولتها إلى امرأة عجوز. سارت أمامي في الممشى وظهرها محني ؛ وركبتاها أيضاً، دون أن ترفع قدميها. زحلقت قدميها في صمت على الباركيه، وكأن أقل حركة تكلفها جهداً لا يطاق. انهارت وهي تتنهد فوق مقعد يكسوه غطاء من الكروشيه الصوف المشغول. تأملتني بنظرةٍ فارغةٍ.

غرقت الغرفة في الظلام، ونوافذها كلها مغلقة، عدا نافذة واحدة، تركتها مفتوحة لتسمح بمرور الهواء. تسللت أشعة شمس عبر المسافات الواضحة. سحبتُ كرسياً وجلستُ بجوار المائدة.

- كما سبق وقلت لحضرتك، أحقق في ظروف مصرع ابنك برنار، وحالياً، لا يزال القاتل مجهولاً فعلاً. ونحن لا نملك -اطلاقاً- أي دليلٍ ذا بال لتوجيه تحرياتنا، ولا نعرف له أي أعداء، وحياته العاطفية تبدو شديدة البساطة... وبصراحة تامة، هناك -رغم هذا- واقعة تسترعي انتباهنا ؛ اليوم الذي لم يعايشه ابنك، يوم وفاة والده...

راقبت رد فعل محاورتي. لكن الحديث عن نهاية زوجها لم يغّير أي شيء في تصرفاتها.

- ... علِمت -صدفة- بظروف اختفاء زوجك المأساوية. لا شيء مؤكد مطلقاً ؛ لكن يحتمل جدا أن أبنك قُتل لنفس أسباب قتل والده. ألا تعتقدين ذلك؟

أحسست أن حديثي إنما يتوجه إلى جدار. إلى ميت/ حي.

حافظت مدام تيرو على عينيها مصوبتين نحوي، لكن نظرتها لم تنجح في التشبث بشيء، وكأنها تعبرني وتتجه بعيداً، ورائي. واصلت:

- ... أعلم أيضاً أنه لم يتم أي تحقيق عام ١٩٦١، وأن اسم زوجك قد ورد بين ضحايا المظاهرات الرسميين. ضحايا من؟ الشك -هنا- مسموح به. لم يفت الأوان بعد لإصلاح هذه الغلطة. أريد أن أساعدك.

اضطربت لأول مرة. نهضت وجاءت لتستند على خشبة خزانة الأطباق.

– أيها المفتش ؛ كل هذا ملك الماضي. لا يفيد شيئا العودة إلى هذه الأحداث كلها وتشريح المسئوليات...

كانت تقوم بوقفات طويلة بعد كل كلمة، وتحدد علامات التوقف في جملتها بزفراتٍ طويلة.

– ... لقد مات زوجي، ومات ابني. لن تعيدهما مرةً أخرى. سلّمت بأن تصبح حياتي هكذا، وآمل أن ألحق بهما بأسرع ما يمكن.

– لماذا؟ ما الذي تريدين اخفاءه؟ تلقى روجيه تيرو رصاصة وهو يشارك في مظاهرة. هل علمتِ أنه كان مهتماً بشبكة مساعدة جبهة التحرير الشعبية؟

– أنت مخطيء. لم يكن لزوجي أية ميول سياسية. اهتم بعمله، بالتاريخ. كرّس له وقته، في الليسيه وفي البيت أيضاً. وليلة موته، كان عائداً بعد حصته الأخيرة كالمعتاد...

أخذت تتنقل في الحجرة، على طريقة العجائز، متجنبة –بعناية– الجزء الواقع بالقرب من النوافذ المطلة على الشارع. وبكل بساطة، اقتربت من النوافذ بدافع الفضول، لكن سلوكي سبب لها ذعراً حقيقياً. التصقت بالحائط المقابل وهي تلهث.

شكلت المساحة المحيطة بالنافذة أرضاً منفصلة ومستقلة حقاً، حيث تراكمت الأتربة. ما من أحد اقترب أبداً من هذا المكان. فجأةً، أمسكت بالستائر ودفعتها لتنزلق على الماسورة. وجدت صعوبة في فتح الرتاج. اضطررت إلى بذل جهد حقيقي لفتح طرفي النافذة ؛ ثم رفعت سقاطة الشيش، اجتاح ضوء النهار المنزل، اندلع شعاع شمس على الحائط الذي استندت عليه مدام تيرو. انحنيت. وأسفل –بعشرة أمتار– أحاط ناس بمنصة دكان الحداد، الذي لم أميز منه إلا السقف المتموج، بينما مجموعة من الصبية تصعد سلالم شارع نوتردام دى بون نوڤيل.

كانت مدام تيرو قد بحثت عن ملجأ في المطبخ، فريسة لأزمة هستيرية حقيقية، وهي تبكي بينما جسدها ينتفض من الرجفة ومن الحركات العصبية. وضعت ذراعي على كتفيها.

– لا أريد لكِ أى سوء يا سيدتي. أنا هنا لمساعدتك. تعالي ولا تخافي...

أمسكت بها من رسغيها وقدتها –رويداً رويداً– نحو المكان الذي طالما خافت منه. لم أكف عن الحديث معها وتشجيعها. وكلما اقتربت من النافذة، كلما اشتدت استغاثتها وصرخاتها. لكنها استسلمت أخيراً، وتخلت عن أية مقاومة. نجحت في إبقائها بجواري، ووضع ذراعيها على متكأ النافذة.

– افتحي عينيك، أتوسل إليكِ. مضت عشرون سنة. لم يعد هناك ما يخيفك.

استرخت وكفت عن البكاء والأنين. ارتفع جفناها خفيةً أولاً ثم انسدلا. تحركت أهدابها من

جديد، وعزمت –فجأة– على التطلع إلى الشارع.

– كنتِ هنا، أليس كذلك، كنتِ هنا تنتظرينه عندما قُتل؟ قولي لي... ألم يطلب منك أحد أبداً الإدلاء بالشهادة؟

ابتعدت بهدوء عن النافذة، وعادت لتجلس على المقعد. غيرتها التجربة فبدت أكثر قوةً وشباباً، وكأنها عادت إلى عمرها الحقيقي. أدارت رأسها نحوي.

– نعم. كنت متكئة على النافذة، فروجيه ينتهي من حصته الأخيرة الساعة الخامسة مساءً، ويفترض أن يكون قد عاد إلى المنزل منذ ساعتين، كما في الأوقات العادية. في هذه الفترة، سيطر عليّ القلق الشديد، فحملي في برنار منعني من الخروج بسبب صعوبته. اضطرت –تطبيقا للتعليمات– إلى البقاء في المنزل لتلافي الولادة المبكِّرة، لم يبلغني روجيه باحتمال تأخره. ثم، فجأة، بدأت المظاهرة. الصرخات، والهرج، والتدافع، انفجارات القنابل اليدوية وطلقات الرصاص. أصبحت كالمجنونة. وفي كل لحظة كنت أندفع نحو الشباك، أترقب زوجي، أو إلى الباب، ما إن أسمع وقع خطوات على السلالم. وفي لحظة ما، لمحته في الشارع، يقترب من بيتنا. أذكر هذا وكأنه يحدث الآن. أراه يسير ومعه باقة ميموزا وعلبة جاتوه. صعد بعض الدرجات وتوقف بالقرب من السور ليراقب الأحداث والضرب بالهراوات. صرخت فيه أن يصعد، وألا يطيل الوقوف، لكن أصوات المظاهرة طغت على صوتي.

– كان وحده؟

– في البداية نعم. ولكن، بعد قليل، جاء رجل يرتدي زي الشرطة الرسمي ؛ رجل من قوات الأمن الجمهورية حسبما اعتقد ؛ واستقر بجواره بدت هيئته غير طبيعية: فقد كان يحمل معطفاً مطوياً على ذراعه رغم المطر ورغم البرد. انزلق خلف زوجي، وثبت رأسه بساعده، والمسدس في يده الأخرى. صرخت بأعلى صوتي، بلا أية نتيجة. أردت الهبوط، لكنني –بالكاد– نجحت في مغادرة هذه الحجرة بسبب برنار.. المهم، بسبب بطني. مسكين برنار!

– اغفري لي اضطراري إلى قلقلة ذكريات كهذه، فليس هناك أية وسيلة أخرى. هناك سينمائي بلجيكي صور جزءاً من هذا المشهد، لوجوده في الناحية المقابلة من البولفار، بالقرب من مسرح «الجيمناز». معي صورة مأخوذة من هذا الفيلم التسجيلي. الأمر يتعلق بلحظات زوجك الأخيرة. وجه قاتله نصف مختف، غير أنه يظل معبّراً. أتريدين رؤيته؟

وافقت. أخرجت النسخة المطبوعة ليلة أمس في ستديوهات راديو وتليفزيون بلجيكا الفرانكفوني.

– تعرفينه؟

هزّت رأسها.

– لا أيها المفتش. لم أقابل أبداً هذا الرجل. أبداً لم أشاهد زوجي في صحبة الشرطة، ولا أفهم لماذا قتلوه...

– آخر شيء –سيدتي– وينتهي الموضوع. منذ لحظة قلت أن زوجك كان ينتهي من حصصه الساعة الخامسة بعد الظهر. ما تفسيرك لوصوله إلى منزلكما متأخراً ساعتين؟ فأقل من دقيقتين يكفي لاجتياز المسافة الفاصلة بين الليسيه والبولڤار...

– لا أفسره لنفسي أيها المفتش. هكذا الأمور.

– وهل كان تأخره متكررا؟

– مرة في الأسبوع. أحيانا مرتين... اسمعني أيها المفتش، حملي منع علاقتنا الخاصة. ليس ممتعاً الاعتراف بذلك، لكنه واقع. وقد ارتضيت احتياج روجيه إلى لقاء امرأة طبيعية. ما السيء في هذا؟

– ليس هذا سيئاً على الإطلاق. أنا آسف. لكن مهنتي تقوم على التطفل. وقد سألتك هذا السؤال لأن جرد جيوب روجيه تيرو أسفر عن وجود تذكرة سينما «ميديه –مينويه». أعتقد –للدقة– أن الحقيقة تكمن هنا! منذ عشرين عاماً، كان مدرس تاريخ محترم يبدي بعض التحفظات إزاء الاعتراف بحبه للسينما الخيالية... حتى لزوجته. لدي رقم التذكرة، سأكلف مساعداً لي بمراجعة تاريخ التسليم المضبوط من المركز القومي للسينما.

بعثت إليّ بابتسامة. فشلت في ألا أفكر –وقد اجتاحني شعور جارف بضيق نفسي حاد –بأنها أول ابتسامة منذ اثنين وعشرين عاماً.

– زوجك لم يُقتل صدفة. واضح أن قاتله ينفذ خطةً محكمة، فهو يملك أوصاف ضحيته. الفيلم البلچيكي ذو دلالة في هذا الصدد. فرجل قوات الأمن الجمهورية، أو المتنكر في زيهم، غادر مخبأه وتوجه –بلا تردد– نحو شارع نوتر دام دى بون نوڤيل. وطريقته تثبت أنه شخص محترف، مثلما حدث مع مصرع ابنك في تولوز. أو أن زوجك –وهي فرضية مستبعدة– يشبه تماماً هدفاً آخر. لا. أعتقد حقاً أنه هدف القاتل. فلابد أن زوجك أزعج شخصاً ما إلى حد أن يصبح ضحية إعدام حقيقي. أأنت واثقة أنه لم يمارس أي نشاط سياسي من أي نوع؛ نقابي أو حتى إنساني؟

– لا. سبق وقلت لك. فعدا هذا التأخير –ذهابه إلى السينما، لو وثقت في كلامك –لاأرى أي شيء خفي في حياة زوجي. لم يتناول روجيه –أبداً– هذه الموضوعات في المنزل. كنا نتحدث عن التاريخ، أو عن الأدب. كانت تستهويه العصور الوسطى كثيراً؛ وكان يستجم بكتابة نوع من الدراسة عن موضوع واحد، عن مسقط رأسه درانسي؛ فقد أحب أهله بشدة. لازالوا يعيشون هناك، في سين –سان– دني، ويقيمون في شارع دى بوا دي لامور. وما أزال أتساءل أهو المنزل الذي منحه حب التاريخ...

– كيف هذا؟

– في الأصل، كان المبنى جزءاً من مزرعة تحولت إلى مطعم فى البدايات الأولى من القرن. يحكون أنه استخدم –لعدة أعوام– وبشكل خاص، كدار للقاء العابر. وبعد قانون مارت –ريشار، هدموا ثلاثة أرباعه وبنوا عيادة للولادة، حيث ولد زوجي. قضى كل شبابه على بعد خطوتين من هنا، في بيت صغير نجا خلال تجديدات هذا الحي. هذا لا يعنيك كثيراً... أتفهم ذلك. المهم. هذه الدراسة موجودة مع ابني على الأقل مع خطيبته كلودين. تعرفها؟

– نعم. التقيت بها في تولوز. أحب أن ألقي نظرة على هذا العمل. سأتحدث معها قبل سفري مساء غد. أكانا متفاهمين؟

– بصدق شديد، لا أعرف أي شيء. بذلت الصغيرة جهوداً مضنية لتأتي هنا، ويبدو أن برنار هو الذى أجبرها على ذلك. أعرف أنها لم تشعر بالراحة في وجودي. لكن ذلك يتخطى قدراتي ؛ لست لينة العريكة. بدا أنهما سعداء معاً، ولا أتذكر أي شيء آخر بخصوصهما.

سرعان ما تركتها بعد قليل وهبطت –بحذر– السلالم الممسوحة بالورنيش ؛ دون أن أترك الدرابزين. استدرت يساراً في اتجاه البولڤار. وعندما وصلت منتصف درجات شارع نوتردام دي بون نوڤيل، التفت إلى الوراء ورفعت رأسي في اتجاه شقة مدام تيرو. وجدتها تتكئ على النافذة. أومأت لي بإشارة الصداقة. راقبتها لحظة قبل أن أبادلها التحية، وأغوص في فتحة المترو في محطة أوبير لآخذ قطار الضواحي، فقد نصحني دالبوا بالنزول آخر خط مارن لاڤاليبه.

امتد ممر المشاة –تحميه قبة من الزجاج الرمادي –من محطة القطار حتى الساحة ؛ حيث تتجمع خطوط الأتوبيسات المختلفة لخدمة المدينة. مجرد نظرة برهنت على أن الخطوط ليست وحدها في خدمة المنظر.

كان الميدان يندمج بمركز حوض منخفض تشرف عليه التلال. ويعترض الموقع واجهة مصطنعة لمركز تجاري عملاق ؛ بينما تمثلت شارة الخيال المبدع الوحيدة في مبنى وردي اللون من عشرين طابقاً، مشيَّد فوق قمة أحد التلال. عبَر الأتوبيس –الذي جلست فيه– بالقرب من المبنى تماماً. استطعت فحص الواجهة الخارجية على مهل ؛ والتي حاكت –بإحاكم إلى حد ما– الشكل الخارجي للحلبة الأسبانية. اتخذ المبنى شكل حائط دائري طويل تخترقه التجاويف. وكل عشرين متراً، يتسلق البناء –بطوله– عمود نصف دائري. كشفت فتحات الأبراج الصغيرة مجرى حجرات المصاعد، وسمح قوسها الواسع برؤية ساحة رحبة، مزروعة بالأشجار والزهور. ذكرت لافتة المشروع أسماء وعناوين متعهدي البناء، وأضافت: «المسرح الكبير ٦٣٠ شقة ساحرة شاغرة تُطل على المارْنْ، ٢ أو ٣ حجرات.

قروض متاحة من «ب. ي. ك»[1] و «ب. أ. ك» [2]و «ب. أ. ب»[3].

أعلن السائق عن محطة بيراميد. أشار عليّ دالبوا بالدوران حول مبنى إداري، ثم الاتجاه يساراً نحو خزان الماء. كان يقيم في قلب مدينة «تجريدية» ؛ في منتصف المسافة بين المساكن ذات الإيجار المتوسط والبيوت الخاصة. ارتفعت الوحدة السكينة في شكل مكعبات مجمّعة طبقاً لنسق فوضوي ظاهرياً.
وشكّل سقف الوحدة السفلي، الساحة الصغيرة للوحدة العلوية. ضغطت على جرس باب ٧٣ أتى دالبوا ليفتح لي.

– مساء الخير يا كادان. تساءلت عما إذا كنت ستلوذ بالفرار.

تراجعت إلى الوراء، لأثبت له أن الفكرة لم ترد لي على بال.

– هيا. تلبية دعوتك بهجة حقيقية.

قدّمني إلى جيزيل المنهمكة في إعداد العشاء. أغلقت الفُرن الحراري المبرمج، والتفتت نحوي وهي تشير بيديها المفتوحتين:

– اعذرني. لم يكن لدي متسع من الوقت لأغير ملابسي.

جعلني دالبوا اتفقد الشقة حتى أصغر بلاكار فيها، ثم قادني إلى الصالون. أضاء التليفزيون، وحرص على إغلاق الصوت.

– حسناً. هل هناك تقدم؟

رويت له رحلتي البروكسيلية، ولقائي بوالدة برنار تيرو. انتبه عندما ذكرت له الصورة التي طبعها فنيو التليفزيون البلجيكي من شريط الڤيديو.

– معك هذه الصورة؟

وضعتها على المائدة الواطئة، بين فواتح الشهية وزجاجات الخمر.

–مؤكد أن حكايتك لا تُصدق...

قرّب النجاتيف من عينيه:

– رجلك من قوات الأمن الجمهورية يبدو حقيقاً ؛ عدا غياب العلامات المميزة. ومنطقياً، عليه

---

(١) PIC قروض عقارية من الضمان الاجتماعي.
(٢) PAC القطاع العام للإعداد والبناء.
(٣) PAP قروض للحصول على الأولويات.

ارتداء أرقام فرقة منطقته. ألا تعتقد ذلك؟

– في الأوقات العادية، نعم. لكن ليس هذه الليلة. استعلمت عن ذلك. تم تجميد اللوائح. وجميع الواحدت استخدمت أسلحة الاحتياطي، بما فيها الأسلحة الهجومية. يحتمل جدا أن الرجال تلقوا الأوامر بإخفاء رمز هويتهم.

– لقد أبحرت في مغامرة عجيبة. سبق وقلت لك هذه النصيحة. لكنني أفضل ترديدها لك: كف عن الاهتمام بهذا. قم بالتحريات في تولوز وأنت قرير العين، فهم لا يطلبون منك أكثر من ذلك. وسينتهي الأمر بملف «للحفظ» مالذي ستخسره؟ لا شيء! ستجد جريمة قتل أقل حقارة لتعويضك. تشرب «ريكار» ؟

– لا. شكراً. لا أحتمل الخمر مع هذه الحرارة.

– إذن، لننتقل إلى المائدة. أنا الذي انتقيت قائمة الطعام في ذكرى سنوات الأشغال الشاقة بستراسبورج.

أتت جيزيل دالبوا وهي تتدلل بطبق فخاري، تزينه كرنبة ضخمة، مملحة ومخللة، يزينها سجق الدجاج، ووضعته بين زجاجتي «جور سترامينير».

– اهجم يا كادان. لا تخجل. ستري أنها بارعة –إلى حد ما– في طهوها. إنها كرنبة ستراسبورية بزينة الأعياد. جيزيل تطهوها حسب طريقة «كولمار»، وتضيف إليها كوباً من «الكيرش»، قبل تقديمها بساعة. ما رأيك؟

– وجبة فاخرة. أهنئك يا سيدتي.

التهمنا الطعام ونحن نستعين –بسخاء– بنبيذ «الزاس». أجلستنا جيزيل في الشرفة، في الهواء الطلق، لنحتسي القهوة. انحنى دالبوا وعلى وجهة رصانة من سيبوح بسر ما:

– أتعرف يا كادان، نحن ننتمي للأقلية.

ثم تخلى عن سمت المتآمر:

– ... في الصباح، ثمانية فرنسيين –من عشرة– يحتسون القهوة. لا يثابر سوى أربعة ساعة الغداء، ولا يتبقى إلا اثنان في منتصف اليوم، وواحد –فقط– بعد العشاء! حسناً. نحن الثلاثة هذا الواحد.

نظر إلى ساعته متظاهراً بالمفاجأة.

– ... علينا أن نسرع. قطارك الأخير يتحرك خلال عشرين دقيقة. كنت سأقترح عليك المبيت في المنزل، لكن أسِرّة الأطفال قصيرة.

حرصت على ألا ألح عليه... فالحياة العائلية، حتى تلك التي تخص الآخرين، لا تتوافق معي. رافقاني حتى محطة القطار. وفي الطريق، أعطيت دالبوا الصورة المأخوذة عن الفيلم.

– قدم لي آخر خدمة. حاول الاستعلام عن هذا الشخص. ليس من السهل كشفه، خاصة أنه –بالتأكيد– قد نحيَّ جانباً منذ ذلك الحين. إذا لم تجد شيئاً، فسأفكر في نصيحتك.

وضع المستند في جيب السترة الداخلي. دخل القطار المحطة. جلست بجوار النافذة، وأنزلت زجاجها رغم كل تحذيرات العالم القيِّمة. وعلى رصيف المحطة، وقف دالبوا على أطراف أصابعه، حتى لا يضطر إلى الحديث بصوتٍ عالٍ.

– لا أعدك شيء يا كادان. اترك لي ثلاثة أو أربعة أيام. أنا لا أحتاج إلى أكثر من ذلك لاقتفاء أثره. وبصراحة تامة، فإن فتى قوات الأمن الجمهورية هذا أكثر خطورة من إصبع الديناميت، وليس لدي إلا رغبة واحدة، التخلص من وجهه القذر بأسرع ما يمكن. سأطلبك في تولوز حين يجد جديد. باي.

كانت العربة خاوية. ظللت وحدي حتى محطة فنسان. عندها، سيطرت عصابة من السفاحين على المكان. اقترب مني شخص ضخم يمتلئ وجهه بالبثور. جلس بتثاقل على المقعد الذي يواجهني. بسط ساقيه واضعاً حذاءه بعيداً عن فخذي بسنتيمترٍ واحد. اكتفيت بإزاحة الجانب الأيمن من سترتي لأظهر جراب مسدسي والعصا السوداء. وفي الحال، لحقت القدمان الأرض. نهض الرجل وقد توتر قليلاً. سمعت أجزاء من الحديث: «إنه شرطي، معه سلاح». وقرروا النزول في المحطة التالية، ناسيون. واستعدت هدوئي.

❖

ليست مفاجأة كبرى. لا.. لكنها دقة قلبٍ صغيرة رغم كل شيء ؛ عندما تعرفت –صباح اليوم التالي– على صوت كلودين شينيه في التليفون. رحت أتهيأ للاتصال بها ؛ دون أن أنجح كثيراً في حسم الموضوع. ظللت أصوغ جملة أولى، وأغيِّر فيها... ووضعت مكالمتها حداً لترددي.

– أيها المفتش ؛ أريد –ببساطة– أن أشكرك. اتصلت بي والدة برنار مساء أمس لتحكي لي عن مغامرتها معك. لا أعرف هل أسرَعَ هذا اللقاء من تحرياتك ؛ كما آمل. لكن تحرياتك حول أسباب مقتل برنار ساعدتنا كثيراً.

غمغمت بشكل يدعو للرثاء ؛ وتركتها تستأنف المبادرة.

– سترجع إلى تولوز هذا المساء؟ مضبوط؟

شعرت بإحباط ما في نبرتها، شبه آسف.

– نعم. سآخذ قطار الرابعة بعد الظهر. هل يمكننا أن نلتقي قبل هذه الفترة؟ هذا ضروري، بأية طريقة، لازالت لدي بعض الأسئلة لأوجهها لكِ. ماذا تفعلين الساعة الثانية عشر؟

– أعمل في رسالتي الجامعية.

– وأنا الذي اعتقد أن الطلبة في أجازة!

تسرعت قليلاً في الكلام. لكنها أجابتني بلا غضب:

– في هذه الحالة، هي أجازة حزينة حقا.. أفضل العمل، فهذا يشغل تفكيري، زد على ذلك أن موضوعي شيق. أقوم بجمع البيانات الميدانية فيما بين بوابة «إيتالي» وبوابة «جانيتي». هناك مطعم صغير في بولفار كيلرمان، بالضبط بعد باب دخول ستاد شارليتي. هل نلتقي فيه الساعة الواحدة بعد الظهر؟ اسمه «لي ستاديوم».

وافقت على مكان وساعة الموعد، ثم وضعت السماعة. خصصت بضعة دقائق من وقتي لترتيب الملابس في حقيبتي. نزلت إلى صالون الفندق حيث جلس زبونان يشاهدان نشرة أخبار القناة الأولى كان يان –ماروس يعلن عن الوفاة– التي حدثت في ظروف تراجيدية– لأحد كبار مؤسسي الڤيديو. ختم رحلته التقريظية بشهادة:

– ... «وهكذا، بمناسبة وفاة الرائد الشهير في مهنتنا، يسعدنا أن نقدم لكم الحديث الذي دار منذ أقل من أسبوع...».

اضطر فنيو الاستديو إلى إبلاغه –بالإشارات– بعدم ملاءمة هذه السعادة مع طبيعة الحدث ؛ فقد غيّر ماروس من عبارته واستأنف:

– ... «ها هو –إذن– الحوار الذي تملك هيئة تحريرنا الامتياز الحزين، فتهديه لذكرى رائد التقنيات الجديدة».

رفضت احتمال المزيد، دفعت حسابي ورتبت بحوص وبعناية فاتورة النفقات،وتوجهت نحو أقرب محطة مترو. نزلت محطة ميزون بلانش، مما مكنني من الوصول إلى بولڤار كيلرمان بالدوران حول ثكنة الحرس الجمهوري.

وجدت كلودين في انتظاري، متوارية في نهاية المقهى الصغيرة الذي اقتحمه مشجعو فريق

«ريجبى» وهم يحتفلون –مقدماً– بانتصار أبطالهم في مباراة بعد الظهيرة. ولأنني التهمت غداءً دسماً، فقد اكتفيت بكوب من المياه المعدنية.

– إذن. هذا الاستجواب أيها المفتش؟ أنا مستعدة.

قالت جملتها بصوتٍ منفعل قليلاً، وكأن هذا الحديث قد أصبح –بالنسبة لها– شيئاً ضرورياً. أما أنا، فقد توقفت عند رحلتنا الصامتة، واسقاطي أمام محطة التاكسيات، وهو ايقاع سريع جداً بالنسبة لذوقي، حتى لو كان يسير في الاتجاه السليم.

وبسرعة، صنعت لنفسي وجه المنطوي المحترف:

– أأبدو إنساناً فظّاً؟ أطلب منك –فقط– بعض الإيضاحات. لا نملك أى عنصر جديد يسمح بتفسير مقتل خطيبك. لا شيء عدا قصة والده. ولأكون واضحاً، فهي لا تفيد إلا في تشويش كل شيء.

قاطعتني:

– لكنك تتعقب شيئاً ما. حماتي حدثتني في التليفون عن صورة...

– نعم. آمل أن أمسك برجل قوات الأمن الجمهورية. أكيد هو الذي أطلق الرصاص على روجيه تيرو عام ١٩٦١. أنا لا أخدع نفسي كثيراً، ففرصتي في العثور عليه واحد في المائة. والفرضية الوحيدة الجديرة بالاهتمام تكمن في وجود رابط بين جريمتي القتل. إلا أنها –رغم هذا– لا تتوافق مع الجزء الخاص بتولوز. فلماذا خاطر القاتل كل هذه المخاطرة؟

أخذت يد كلودين عندما وضعتها على المائدة لتتناول فنجانها. لم ترفض الملامسة، بل بالعكس، أدارت راحتها نحو كفي وتقابلت أصابعنا. أجبرت نفسي على الحديث، لكننا لم نعد بحاجة لا إلى الأسئلة، ولا إلى الإجابات ؛ ليترك الاستجواب مكانه للبوح.

– ... هل فكرتِ في كل هذه الجوانب منذ عودتك؟ عليكِ ببعض الجهد... هل ألمح برنار إلى أحداث حرب الجزائر، وبشكل خاص في الأيام الأخيرة؟

– لا. سبق وقلت لك أنه لم يتحدث معي –أبداً– عن مشاكله. كنّا نتناقش – بشكلٍ خاص– في دراساتنا، عما سنفعله فيما بعد... وبالنسبة للباقي، كنا متوافقين... الأمر ليس سهلاً... والدته –وقد رأيتها– تجمدت تماماً. وعملياً، لم تدس أنفها في الخارج. لحسن الحظ أنه احتفظ بعلاقات وثيقة جداً مع أجداده. وقضاء يوم عندهم شيء مشجع ؛ فهم يقيمون في الضواحي، في دني درانسي، ببيتٍ صغيرٍ قديم... فى سين –سان– دني. ورغم هذا، ستعتقد أنك على بعد مائتي كيلو متر من باريس. ريف حقيقى. لديهم أشجار فاكهة. وحسب ما فهمته، أصيبت والدة برنار بصدمة شديدة جداً من موت

زوجها، إلى حد امتناعها عن رعاية ابنها. فتعهد جداه بهذه المهمة. يجب أن تقابلهم. هم ناس شديدو الحفاوة والود. ، هذا لا يمنع أنهم اعتقدوا أنهم يرون ابنهم في برنار ؛ بعد ثلاثين عاماً. لقد تولوا تربية برنار بنفس طريقة تربيتهم لابنهم. لم يحاولوا، في أية لحظة، إعادة الروابط مع زوجة ابنهم، خوفاً من الافتراق عن برنار. أنا أفهمهم... بمعنى من المعاني...

أخذت تتحدث بسرعة بالغة، وقد أطرقت برأسها لتتجنب نظرتي. حاولت تفسير سلوكها دون تجديد أحزان كثيرة. فجأة، وقفت واستردت هيأتها المرحة:

— هذه المرة أنا مصرّة على دفع حساب مشروباتنا. أنا مدينة لك. لا تدّع السذاجة. أتذكر البقشيش لصبي الفندق... لم أسدده لك!

وفي الخارج، أخذتنى من ذراعي لتقودني عبر مواقع المساكن ذات الإيجار المتوسط، في شارعي تومير وكافييري الرئيسيين. وصلنا صامتين إلى بوتيرن دي بوبلييه. وأسفل الجسر الحجري لسكك حديد الخط الدائري، هجم حشد من الكلاب –في موجات متتالية– على ما تحتويه صناديق القمامة التى وضعتها البلدية لتمكن الباريسيين من التخلص من فضلاتهم الضخمة. استولى كلب رعي كثيف الشعر على نصيب الأسد وقبع أعلى الأكمة. وعند اقترابنا، كشف عن صفين من الأنياب المتوعدة، أجبرتنا على تغيير الرصيف.

دلفت كلودين إلى شارع ماكس جاكوب، الذي يتداخل –في انحدارٍ خفيفٍ– مع الحي اللاتيني. ظهرت أبراج الزجاج والصلب خلف مباني القرميد الحمراء. وفى منتصف زاوية تسد الطريق، انحرفت يميناً ودفعت باباً صغيراً معدنياً مطلياً باللون الأخضر. أكتشفت حديقة عامة شاسعة، مزروعة بأشجار تتدرج مع سلالم هائلة من الحجر، أشارت كلودين بإصبعها إلى معاقل اخترقتها قوات الرمي.

— نحن فوق بقايا حصون باريس! لم يعد هناك شيء يذكر ؛ تحطم كل شيء منذ عام ١٩٢٠ . نسفت المعاقل الأخيرة مع بناء خطوط قطار الضواحي. وجدت هذا الأثر سليماً وأنا أتجول. وفي منتصف محول بوابة شارونتون، يوجد حصن صغير تحوّل إلى مستودعٍ لمصلحة الطرق. شيّده تيير عام ١٨٤٢ ... ثلاثون كيلو متراً من المنشآت الدفاعية التي كلفت –يا للغرابة– بالهجوم عليها أثناء كوميونة باريس عام ١٨٧١!

اقتربنا من حافة الحُصون، وقد سيطرنا على فراغ رحب تحتله حديقة من العشب الأخضر، مزودة بلعب الأطفال: أبواب دوارة، حلبة زلاّقة... استندت الحديقة، يميناً، على كتل البولڤار الصاخبة ذات الطنين. ويساراً على المساكن ذات الايجار المتوسط. وبعيداً، في الأفق، عدة بنايات صغيرة تدل على خطوط الضاحية الأولي: آركوي، كرملين –بيساتر. وعند انحدار التل، انحصرت مقابر جانتيي بين الطريق السريع والمدن الكبرى. أشارت كلودين إلى كل هذا الامتداد بحركة من ذراعها.

— أنظر كم هو هادئ. ومع ذلك، فبعد بناء القلاع، أقام عدة آلاف من الأشخاص في هذه

المنطقة.

– هل لهم الحق في هذا؟

– لا. هذا محظور منطقياً. لكن القوانين تستسلم –أحيانا– للواقع. أزمة الإسكان، أسعار الإيجارات على سبيل المثال. ومثل ملاك الأراضي بوضع اليد اليوم... منذ فترة ليست طويلة، أقام أجدادهم في مدن الصفيح! هنا واحد من أكثر الأحياء قذارة، وحول بوابة سان –أوين ؛ مملكة الزبالين. لا ماء، ولاغاز، ولا كهرباء. كل القاذورات تلقى في مجارٍ حقيقية لها سماء مفتوحة... ولكن، أأزعجك؟

– غلطانة. أفكر –فقط– في فرصتك في الحصول على وظيفة من نقابة السياحة بمدينة باريس! أكملي. عندما أسمعك، أشعر أنك تأسفين على تلك الفترة. أنا لا. لابد أن هذا المكان المنزوي كان مخبأً للصوص والقتلة. ساحة العجائب...

– حدث هذا بالطبع، إلا أنه ليس إلا جزءاً من الحقيقة. نحن نحتفظ –بسهولة أكثر –بصور «ذات الشعر الذهبي»(★) وأجواء كتب لي بريتون.. في أيام الآحاد، كانت منحدرات الحصون تشبه حديقة «سنلي» ؛ حيث تتنزه العائلات في الهواء الطلق، وحيث يصطادون في المستنقعات...

– وحيث عدد لا بأس به أيضاً من المقاهي!

– بالضرورة! وأخيراً، أفضل الحانات الريفية على عربات البطاطس المقلية والمقانق! جرت مشاجرات وتصفية حسابات طبعاً، لكن أجواء الحفلات الراقصة نادراً ما تميزت بالهدوء. أليس كذلك؟ فالناس كانت تذهب إليها لتنسى تعب أسبوع من العمل. في ذلك الحين، كانوا يكدون ستين ساعة في ظل ظروف مضنية للغاية. محت الأسطورة والأدب مظهر هذه الاشياء... آثروا الحديث عن حواجز الأدغال الكثيفة والمتشابكة.

– صدقيني ؛ لم يتضايق المجرمون من المجئ للاختباء في أحراش البيوت المتهدمة.

– ربما. لكنهم –منذ عشرات السنين– اعتادو إحالة الجرائم كلها إلى قائمة سكان الضواحي. خذ أية جريدة وافتحها على صفحة الأحداث المتنوعة، فستلاحظ أن لا شيء تغير حقاً. النعاج الخطرة هي –الآن– تلك التى تقيم في التجمعات السكنية الكبيرة، في الضواحي البعيدة ؛ «لي منجات» و«٤٠٠٠» وحلّ المهاجرون محل جامعي الخرق...

– تريدين إقناعى بأن الإجرام انعدم تماماً! ثمة أرقام...

– لا، لم ينعدم ؛ بل توافق –في واقع الأمر– مع باريس ومقاطعة السين؛ لا أكثر ولا أقل.

(★) «ذات الشعر الذهبي» فيلم من إخراج چاك بيكر (١٩٥٢) ولعبت بطولته سيمون سينوريه. وقد حوّل المخرج القصة –المأخوذة عن وقائع حقيقية– من مجرد حكاية عشق وجريمة بين لصوص وقطاع طرق –إلى «تصوير مؤثر وأخاذ لمدينة بلفيل» عام ١٩٠٠

فللبعض مصلحة في إضفاء صورة سلبية على شعب المنطقة. وقد استغلوا ظاهرة الرفض، لطردهم من الضواحي المجاورة للمدينة. ولازال الأمر مستمراً مع الاستخدام الحالي لموضوع اختلال الأمن. هم يحاولون الكشف عن أوجه التشابه بين أكثر الفئات الاجتماعية تضرراً بالأمة والمجموعات التي تمثل خطراً على باقي المجتمع. دورة حقيقة من المراوغة! يحولون الضحايا إلى خيال مآتة. وتسير الأمور! وألطف الجدات تضم حقيبة يدها إلى بطنها ما إن تقابل صبياً شعره مجعّد قليلاً. لا شيء أكثر من هذا الخوف يبيح الموافقة -مسبقاً- على الإجراءات المتخذة ضد هولاء الناس.

– تنسين أنك تتحدثين مع شرطي...

– لا. ولا دقيقة. اذهب واطلع على سجلات البوليس زمن الحصون. إنه عمل أجدادكم، إذا صح القول! كانت الجرائم الدموية نادرة تماماً. أما أكثر الجنح انتشاراً فهي الخاصة بالنصب والاحتيال وسرقة الطعام، والخناقات الزوجية. ورغم هذا، فإن الغالبية العظمي من عناوين الأحداث المتنوعة تسيل دماً. وسيلة نجاح جيدة لبيع الورق! يمكننا المرور على كشك وشراء بعض الجرائد، وسنحصل على نفس القرائن: قتلة، ساديون. مغتصبون. كل الأدوار القذرة يرتكبها عمال ومعدمون، لا علية القوم... وعندما يتحدثون عن أطباء، ومحامين، ورؤساء شركات، فتحت عنوان «اجتماعيات». ويظهرون الرصانة، في حين أن المبالغ المستخدمة في النصب والاحتيال، والفواتير المزيفة، واختلاس الاعتمادات، تزيد عشرة أضعاف -في مجملها- عن كل عمليات السرقة بالإكراه في فرنسا كلها.

– الخلاصة. ترين أننا لا نطارد الأرانب الحقيقة.

– تطاردون -فقط- أصغر الأرانب، وتتركون السمينة ترعى وتتغذى في هدوء.

– لا تعرفينني جيداً. فتحقيقاتي السابقة تثبت العكس...

راودتني الرغبة في الاستفاضة، كي لا أصبح -في نظرها- شرطي الخدمة القذر هذا ؛ دون أن يبدو على محاولة تبرئة نفسي. حاولت صياغة جملة في ذهني، لكن الرغبة في الجدل تخلت عني ؛ فلذت بالصمت. لاحظت كلودين حيرتي، فاستفادت منها لتشن هجوماً جديداً.

– النظام يحمي نفسه بطريقة فعالة. والشرطة واحدة من عناصر الجهاز الكبرى، ومن حين لآخر، يجب الحصول على كفارة لإثبات إمكانية إصابة الفئات العليا بالعدوى ؛ ولإظهار أن قوتهم تكمن في واقع لفظهم للعناصر الشريرة خارجهم بلا مجاملة. لاندرو، بيتيو... يتهمونهم بأقصى التهم، ويستخدمون هذه الوحوش الحقيقة لإثبات الجانب الشاذ في معاملاتهم. بديهي أنها خارجة على نسق الأشياء. فيدرج العاطل- الذى يسطو على محل بقالة- في حياة كل يوم. ويتم تقديمه باعتباره ممثلا لطبقته، وبيئته.

– إذا تتبعنا منطقكِ، سيصبح كل العاطلين لصوصاً. لحسن الحظ إنها ليست القاعدة.

أخذت نفساً عميقاً فانتفخ صدرها رافعاً القميص الصغير. التقطت عيناي لمعة السوتيان الأسود

المزين بالدانتيلا. تخلى قلبي عن إيقاع الرحلة الاستجمامية، واندفع لاقتحام المآثر القياسية.

– ترفض الانصات لي. أنا مستعدة للتسليم بأنه يوجد نوع من المساواة بين رئيس مجلس الإدارة والرجل الفقير: للإثنين نفس الفرصة، الواحد والآخر، في أن يصبحا مهووسين جنسياً. لكنك لن تغيِّر فكرتي بأن للعاطل فرصاً أكثر في الوقوع تحت إغراء سرقة البضائع لأسباب حياتية بسيطة.

اشتعل حماس كلودين. لوَّنت حدة الانفعال وجنتيها بنفس اللون الذى احترق به خداي عند رؤيتي العابرة لثديها الخفي. استسلمت.

– لن نصل إلى اتفاق... لكن لدينا –الآن– أرضية للتفاهم، لا يجب أن ننساها. سأبذل قصارى جهدي للقبض على قاتل برنار، سواء كان ضعيفاً أو قوياً، متشرداً أم ملياردير اً. وبهذه المناسبة، حدثتني مدام تيرو عن كتيب عن مدينة درانسي، ألفه زوجها في أوقات فراغه. هل أطلعت عليه؟

ردت بالايجاب:

– نعم. هو في المنزل. كان برنار يرغب في استكماله في ذكرى والده. أستطيع إرساله لك غداً فى تولوز إذا رأيت أنه مفيد لتحقيقاتك.

– أفضل إنهاء هذه التفصيلة بأسرع ما يمكن. أستطيع المرور على منزلك قبل الذهاب إلى محطة القطار. سأطلب من التاكسي أن يتحول عن طريقه المباشر ويقوم بالدوران..

كتبت عنوانها على ورقة من مفكرتها قبل أن تعطيها لي.

بعد نهاية هذه المناقشة بسبع ساعات، كنت أهبط في محطة تولوز الرئيسية. وجدت الرقيب لاردان في انتظاري على رصيف وصول كوراى؛ رغم إنهائه نوبتجيته منذ نهاية بعد الظهيرة. أنزلني أمام منزلي. استغل المشوار ليبلغني بتطوراته في استخدام الألعاب الإلكترونية، بل وبنجاحه في الفوز على ابنه في «معركة سكان سان –مالو»: أربعة اثنين! نتيجة لاستئناف فيها... وإذا ما صدقناه، فلا شيء أكثر أهمية من ذلك قد حدث أثناء غيابي.

❖

الفصل السابع

– حسنا يا بوراسول. هذه الاستدعاءات المزيفة، هل وصلت بشأنها إلى شيء؟

كان الرقيب أول جالساً على مكتبي في حالة حرج واضح.

بدأ يغمغم:

– لا. حسناً. ربما يبدو أن هناك جديداً في إدارات برودي بالكابيتول.

– ليكن واضحاً يا بوراسول. لا أريد أن أكون مديناً بأى شيء لبرودي. تعلَم جيداً أنه من هذا النوع من البشر الذي يجب رد جميله مضاعفاً مائة مرة. ويعتبر نفسه «الأب الإله». أنت وحدك المسئول عن كشف هواة المزاح هؤلاء، لا أحد آخر. نحن –وحدنا– المعنيون بهذه المسألة، وليس البلدية. وبالنسبة لي، فهى مشكلة داخلية. وما الذي يحكونه؟

جلَي بوراسول صوته قبل الأجابة:

– خلال انتخابات عام ١٩٨١ الإقليمية، انتشر –في كافة أرجاء المدينة– ملصق عن «الأفضل»؛ وهو إعلان مزيف، ظهر فيه المرشح الرسمي عارياً في أحد الشواطئ، بين ذراعى امرأة شابة. قبل ثلاثة أشهر، كان قد وقع له حادث سيارة خلال توجيهه لجزء من حملته عن موضوع اختلال الأمن... اجتماعات عرجاء. هل ترى الصورة! تلاعب العنوان المزيف بالموضوع: «حادث سيارته، انتقام زوج غيور!». قدم الشكوى ضد «إكس»، وبلا نتيجة كالعادة. وفي الأسبوع الماضي، خلال التوسعات بمبنى مطبعة البلدية، عثر عمال منشأة البناء –صدفةً– على ألواح الأوفست المستخدمة في طباعة هذه الإعلانات الصغيرة. استجوبوا موظفي القسم، فاعترف واحد منهم بمشاركته في نشاطات مجموعة الموقفيين في تولوز عام ١٩٧٦.

– هل تكلمَّ عن استدعاءات بطاقات مكافحة الإرهاب؟

– لا. اعترف بمجمل العمليات المدبرة منذ عام ٧٧ حتى عام ١٩٨٢. وحسب أقواله، تفككت المجموعة بعد ذلك، نتيجة الاختلافات الأيديولوچية. ربما استمر بعض أعضاء المجموعة في عملهم التخريبي بمفردهم؛ ولكن في ظل ظروف أكثر صعوبة، مادام لم يعد لديهم التموين العسكري. فعصب الحرب الرئيسي هو طباعة المنشورات والملصقات، ونسخ الأوراق الرسمية. وقد اضطروا –بعد خسارة مساندة رجل مطبعة البلدية– إلى الرجوع إلى صاحب مطبعة تقليدي.

– في هذه الحالة، فإن القبض عليهم ليس بمسألة عويصة. هل أمكن تحديد هوية أعضاء الشبكة

الآخرين؟

وضع بوراسول الورقة -التي ظل يهرسها منذ بداية الحديث -على طرف المكتب. أخذت الورقة المنسوخة على الآلة الكاتبة، وقرأت الأسماء بصوتٍ عالٍ:

- جاك مونوري، كلود آنشيل، جان بييربوراسول.

اصطدمت بالاسم الأخير. فسألت الرقيب أول:

- أهو قريب لك؟

أحنى رأسه مثل صبي ضُبط متلبساً بارتكاب غلطة، ونطق بوهن:

- نعم أيها المفتش. هو ابني، لقد كتبت استقالتي، لا أفهم، إطلاقاً، ما حدث له.

تهاوى على المقعد، وانفجر في البكاء. لم أعرف كيف أتصرف في مواجهة هذا الموقف المستجد تماماً عليّ. اقتربت من بوراسول، وربّت على كتفه كما سبق ورأيتهم يفعلون في السينما.

- لم نصل إلى هذه الدرجة بعد أيها الرقيب. ما فعلته الآن شيء شجاع جداً. لا يوجد كثير من رجال الشرطة ممن هم من طينتك، وعلى استعداد للتضحية بعائلاتهم من أجل فكرتهم المثالية عن العدالة الحقيقية. فأنت لم تتردد في الإبلاغ عن ابنك. ماذا نطلب أكثر من ذلك من موظفٍ في الشرطة؟ أسوأ أنواع العدالة أن ندفعك إلى الاستقالة بسبب خطأ لم ترتكبه. وإذا واجهنا الأشياء على حقيقتها، فعلينا أن نعترف أنهم لم يرتكبوا جرماً كبيراً. سأحاول إصلاح الأمر.

كف بوراسول عن البكاء، وأخذ ينخر بشدة قبل أن يمرركُم زيه الرسمي تحت أنفه.

- هل تحدثت فى هذا الموضوع مع ابنك ؛ فمن السهل عليه -نسبياً- الحصول على الورق الذى يحمل شارة البوليس، بالاضافة إلى الأختام. فلا يمكن لأحد أن يشك في ابن زميل..

أجابني بصوتٍ خافتٍ:

- طبعاً فكرت في هذا أيضاً. لكنه مستحيل. فابنى يتجول في «الآنتيي» منذ أربعة أشهر، ويؤدي الخدمة العسكرية في البحرية القومية. وبالنسبة للباقي، لا أقول لا... أما هذه الحكاية، فهناك عذر قوي.

قطع جرس التليفون من تتابع مغامرات عائلة بوارسول الحزينة. أخطرونى بحدوث سرقة بالإكراه فى محل مجوهرات بممر جان -جوريس. نجح التاجر فى تشغيل جرس الإنذار، دون إثارة انتباه اللص المسلح. كان علينا التدخل بسرعة لاستغلال حالة التلبس، راجعت أداء المسدس «هيكلر» طراز ب إس٩، ثو رفعت صمام الأمان أسفل المغلاق. وجدت لاردان في انتظاري في الفناء ومحرك السيارة

يدور. جلست بجواره. ولعلمه بتطور الموضوع، من لاسلكي السيارة، أسرع بها دون حاجة إلى لفت انتباهه إلى إلحاح الموضوع.

اختبأت سيارة دورية خلف كنيسة نوتردام دي جراس. أمرتها بعدم التحرك أو التصرف إلا بناء على أوامر لاردان باللاسلكي. استطاعت الدورية –من موقعها– تغطية محل المجوهرات والشارعيين اللذين يحدان كل ناحية منه. سرت جنوباً، في أحد الشارعين، فأحطت بالحي. أوقفت السيارة، بالضبط قبل ممر سان جوريس. تركت لاردان وتوجهت نحو المحل متصنعاً هيئة المتجول الحر. وجدت صعوبة في تمثيل الدور. في لحظات كهذه، نأسف ألا تتضمن تدريبات الشرطة دورة أو دورتين عن التعبير الجسدي... ألقيت نظرة سريعة حولي. ظاهرياً، لا يوجد من يراقب الرصيف ؛ إلا إذا كان هناك شريك يختبئ في ركن من الباب ؛ وفي هذه الحالة، أصبح هدفاً ممتازاً له.

عندما وصلت بالقرب من محل المجوهرات، ألقيت بنفسي على الباب الزجاجي. اقتحمت المحل صارخاً كمجنون، وأنا أصوب المسدس:

– بوليس! ارموا أسلحتكم.

بدا اللص المسلح شخصاً مضطرباً وضئيلاً، يرتدى زياً كموظفي البنوك: بلوفر وحذاءً إيطاليين. قام بنصف دورة على عقبية وسدد نحوى مسدساً ضخماً، لكن خوفه لم يكن يقل عن خوفي.

– لا تلعب بهذا.. بإمكاني تسديد ثلاث طلقات في رأسك قبل أن تتمكن من شحن مسدسك.

انتقل إبهامي –خفيةً– نحو طرف المسدس ؛ وضغطت –بهدوء– على الزمام الصغير جداً، والموجود يساراً، خلف حامية الزناد. أي ضغط على الزناد أو أي انقباضة من سبابتي تكفي الآن لإطلاق الرصاص.

– اسمعني جيدا. في حالة كهذه، كلامي يساوى ذهباً، قيمته أغلى بكثير مما يمكن نهبه هنا، ليست لديك أية فرصة للخلاص من هذا المأزق. لقد خسرت. هناك سيارتان تمتلئان برجال الشرطة في الشارع. وخلال خمس دقائق، ستأتي كل شرطة تولوز –كما فى المؤتمرات– هذا دون ذكر التليفزيون وراديو الجنوب.

لم يتحرك، وحافظ على ذراعه ممدوة، ويده متقلصة على إخمص مسدسه.

– ... كن عاقلاً. فحتى الآن أنت معُّرض لعقوبة محاولة السرقة بالسلاح. وهذه مسألة خطيرة. لكن يمكن إصلاحها إن لم تطلق الرصاص، سيطلبون منى الشهادة في المحكمة، وشهادة شرطي عاصر الواقعة تساوي وزنها سنوات من السجن. إذا حكيت لهم أنك لم تبد أية مقاومة فستكسب ثلاث أو أربع سنوات.. قلل الخسائر، هذا أفضل للجميع.

بدت خطبتي بلا أي أثر عليه. أو أنها لم تحقق الهدف المرجو منها. قررت التعجيل بالأمور.

– ... المسألة بين يديك. أمهلك ثلاثين ثانية لتجيبني ؛ وتقول لي ما إذا كان اقتراحي يلائمك. أسرع. ثلاثون ثانية تنتهي بسرعة.

لم تبرح عيناي مسدسه. فهمت أنني كسبت الجولة عندما استرخت يده وانفتحت. سقط السلاح على الأرض وهو يصدر صوتاً أجوف أشبه بصوت لعبة. اندفع الجواهرجي نحو قدمي مهاجمه، والتقط المسدس. رفعه في الهواء وهو يضحك بعصبية:

– إنه بلاستيك! ما كنت أصدق ذلك أبداً... يمكن القول أنه مؤثر بشكلٍ غريبٍ. يُحدث نفس أثر الحقيقي.

انتهز اللص المسلح هذه الثواني من الارتباك ليرفع يديه إلى فمه. ابتلع بمشقة –مرة إثر مرة– ثم ارتمى على الأرض وأخذ يتلوى، فريسة لتقلصات عنيفة. ركعت على ركبتي لأفحصه عن قرب.

– لقد سمم نفسه. بسرعة اطلبوا له الإسعاف، سيموت!

شحب لون الجواهرجي:

– لا أيها المفتش. هذا الخفير ابتلع ماسي ولآلئي. التهم أكثر من ٣٠ مليون. إنه مجنون.

دخل لاردان المحل يتبعه حشد من رجال الشرطة في زيهم الرسمي ومسدساتهم في الهواء. اعترضت طريقه.

– يجب نقله إلى المستشفى فوراً. بسرعة. تصرف.

– أهو جريح ؟ لم نسمع صوت طلقات رصاص!

– لا.. هذا المغفل ابتلع رأسمال المحل. لديه أغلى قناة هضمية في العالم...

قادتنا سيارة الإسعاف إلى المستشفى العسكري، بالقرب من جسر سان –بيير. انتقل ملتهم الماس –فوراً– إلى يدي الطبيب الباطني.

استقبلنا الطبيب بعد فحصه.

– لا يمكن عمل أى شيء الآن. عليَّ أن أصرح لكم بأنها أول مرة أعالج فيها مريضاً بسوء هضم حجارة ثمينة. في الأوقات العادية نجد أشياء أقل قيمة: مسامير، قطع زجاج، أسنان شوكة. شيء لا يصدق –حقاً– ما يستطيع الناس ابتلاعه. وأنا لا أهتم إلا بما يمر عبر الفم! يستطيع زملائي –الذين يعملون على الفتحات الطبيعية الآخرى– أن يحكوا لكم... الرجال مثل النساء! سبق وفكرت أنه يجب

جمع كل الأجسام الغريبة –المستخرجة منذ عشر سنوات في تولوز فقط– وإعداد متحف للأشياء الفاسدة. سيحرز ماسكم نجاحاً باهراً.

– آسف. يجب استرداده، فهو وثيقة إثبات. هل ستطول المسألة؟

لوى الأستاذ فمه ليؤكد على أنه يُفكر:

– هو من عيارٍ صغيرٍ، وهو –حالياً– يتجه نحو المعدة. سنتابع تقدمه بالأشعة أو الموجات الصوتية ؛ حتى نجنبه جرعات كبيرة من أشعة إكس.

تدخّل الجواهرجي في هذه اللحظة بالذات:

– آمل ألا تتعرض أحجاري للتلف بواسطة الأشعة أو العصارة المعوية؟

مط البروفسير شفتيه اشمئزازاً، وفضلّ تجاهله.

– خلال الساعات القادمة، ستعبر الأحجار الجزء الثاني من الجهاز الهضمي، وستقترب مرحلة العبور المعوي. وهي مرحلة حسّاسة ولا تخلو من المخاطر. ولا يمكننا استبعاد احتمال انسداد معوي واللجوء إلى الجراحة، ولا أخفي عليكم أنها جراحة حرجة ومحفوفة بالمخاطر.

– وإذا سارت الأمور بشكلٍ طبيعي؟

– هذا ما آمله. وفى هذه الحالة، سترون الأحجار خلال ثلاثة أيام كحد أقصى، بل وأعدكم غداً إذا وثقت من استعداد مريضنا على التعاون معنا.

– بمعنى؟

– لازالت لدينا إمكانية إعطائه مليناً قوياً يؤثر –بشكلٍ فعّالٍ– على الأداء المعوي. وطبعاً لا نستطيع إعطاء علاج كهذا دون موافقة المريض. فلن تسامحنا منظمة العفو الدولية...

أدت الآثار المخيفة والمتوقعة للعملية الجراحية إلى أن يحسم اللص المسلح الموضوع، ويوافق على إدخال مواد تهدف إلى الإسراع من وظائف أعضائه. حرصت على وضع شرطي مسلح في غرفة الخزانة المتحركة، وأمرته بمراجعة فضلات السجين.

وافق التاجر –عن طيب خاطر وشعور بالعرفان– على الاقتراح الذى عرضته عليه بملازمة الشرطي ومساعدته في مهمته.

تم استعادة المجوهرات واللالىء في اليوم التالي، بفضل تركيبة ملينة، أساسها أوكسيد المغنسيوم الجيري. وقام الطبيب الباطني بتعديل تركيبتها بدقة متناهية (كل–ما، ٢ كوم) حتي يتجنب مخاطر

الآثار الجانبية.

❖

عند عودتي إلى المكتب وجدت تلغرافاً من باريس فى انتظاري. عثر دالبوا على أثرٍ لقاتل روجيه تيرو، وستصلني منه رسالة تفصيلية في الليلة نفسها.

حاولت الاهتمام برزمة من الملفات المؤجلة دون اقتناع كبير. سلسلة سرقات فى البيوت الصغيرة، حالتين -أو ثلاث- قيادة في حالة سكر، ورفض تنفيذ إنذار بالدفع. رحت أقتل الوقت بمراجعة الحالة المهنية لطاقم العاملين بالقسم، وجدول الترقيات. اكتشفت أن بوراسول يستطيع أن يرقى إلى الدرجة الرابعة، إلا إذا أضمر له المأمور ماتبيو الضغينة وتذكر له طيش ابنه، فخصه بعامين إضافيين في الدرجة الثالثة.

كنت أنتفض مع كل جرس تليفون، وكل دقة على الباب. يمر الساعي -بانتظام- في الساعة الخامسة بعد الظهر، خلال جولته المسائية. لكننى تمنيت أن يخالف العرف. اندفعت نحو السلالم ما إن رأيته وهو يجتاز البوابة. حصلت على كل المراسلات وفرشتها على لوح مكتبي الخشبي. وجدت رسالة دالبوا بينها. فتحتها ممزقا الظرف من تعجلي. لم يستنكف مفتش المباحث العامة من استخدام الصيغ التي لا فائدة منها.

«عزيزي كادان،

رجلك من قوات الأمن الجمهورية اسمه بيير كازاس ؛ وينتمي -في الواقع- إلى القوات الخاصة، المكلفة بتصفية المسئولين في منظمة الجيش السري وجبهة التحرير الشعبية، خلال الأعوام الأخيرة من الحرب. ومهما حدث، أبلغك أن كافة الحقائق المرتبطة بحرب الجزائر قد تم كتمان أمرها بواسطة مرسوم يوليو ٦٢، والذى ينص -ضمن أشياء أخرى- على أنه لا أحد سيصبح موضوعاً لمساءلة الشرطة أو العدالة، ولا لأي تمييز من أي نوع بسبب الأفعال التى ارتكبت خلال الأحداث التي جرت في الجزائر، أو في البلد الأصلي (المستعمر)، قبل إعلان وقف إطلاق النار.

بيير كازاس على المعاش اليوم، وكان يقيم -منذ بضعة أشهرٍ مضت- بالمنطقة، في جريزول، وهى قرية صغيرة تقع بين جريناد وڤردان، على الطريق الإقليمي السابع عشر.

انتبه. لم تعد تسير على قشر بيض، بل على متفجرات. كن ظريفاً وتخلَّص من هذه الورقة ما إن تقرأها. تصرفت بالمثل مع الصورة التي سلمتها لي.

كل الود

«دالبوا!»

أخرجت ولاعة من درجي وأحرقت الخطاب في المطفأة ومعه المظروف. عهدت بباقي المراسلات إلى السكرتيرة لتباشر توزيعها ؛ ثم بحثت عن لاردان.

وجدته مسترخياً على المقعد الأمامي بسيارة القسم. بدا أن مرضاً عصبياً أصابه. كانت ذراعاه ترتعشان في حركاتٍ متقطعة بينما يغطس برأسه، ومن حين لآخر، يعتدل ليغطس من جديد في الاتجاه المقود. توصلت إلى تفسير لهذا السلوك «الباركنسوني»(*) عندما اقتربت من البوابة. فقد تخلى الرقيب لاردان – نهائياً – عن بهجة مكعبات «روبيك» الحسابية، وهو يتعاطى –الآن– لعبة الفيديو «بنساي» العصابية: أمسك بين يديه لوحاً إلكترونياً بحجم حاسب آلي صغير، وراح يساعد شخصاً ضئيلاً –بالرسوم المتحركة– على عبور طريق مليء بالفخاخ.

– دعني أرى هذا يا لاردان! اتجه إلى جريزول. إنها بلدة صغيرة موجودة في الإقليم ١٧، قبل مونتوبان.

تركته يلعب بالشرائط البيضاء، وبإشارات التوقف، وبالأسبقيات، وبكل الرجال الصغار الذين يسيرون في نهاية بعد الظهيرة هذه بين تولوز ومونتوبان.

توليت قيادة عملية هروب منظف المداخن الصغير، إبهامي اليمنى للتقدم إلى الأمام واليسرى للتراجع. حاولت توجيهه إلى الهليكوبتر التي ينتظره فوق إحدى العمارات. كان عليه أن يتسلق عددا مدهشاً من السلالم، وأن يعبر عدداً لا ينتهي من الأبواب التي تقفل عند اقترابه، وتجبره على القيام بانعطافات لاهثة. شارك البواب في اللعبة أيضاً، وأخذ يطارده وهو يقذفه بأدوات المطبخ. وكان عليه –بالإضافة إلى هذا– الاحتراس من التصرفات السيئة لفأرٍ عملاقٍ، لا يجد شيئاً أكثر إثارة من أكل طوابق بأكملها.

وعند المرور على قرية «ڤردان»، نجحت في الوصول بمنظف المداخن إلى السطح. ولكن – وفي هذه اللحظة الأخيرة، وبسبب حركة خاطئة من إبهامي اليمنى– اختلت الهليكوبتر وتحطمت على نوافذ الطابق المائة والثلاثين. فانتهز البواب المضحك الفرصة ليغرس سكين جزارٍ رهيب في ظهر منظف المداخن، واندفع الفأر ليلتهم الجثة. انبعثت قطعة موسيقية خشنة صغيرة. أولى شارات الموسيقى الجنائزية.

– نجحت بكم؟ ما هو مجموعك أيها المفتش؟

ضغطت على زر إعلان النتيجة.

– تسعمائة وتسعة وثلاثون درجة!

– رقمي الشخصي ألف وخمسمائة وخمسة عشر. ليس أمراً سهلاً أيها المفتش... قريباً سأدفع

(*) مرض باركنسون: شلل رعَّاش مع تَعظم عضلي.

لنفسي ثمن «ياكون» . فهي لعبة أكثر أثارة بعشرة أضعاف. فالشخص يواجه عدواً يجهل هيئته ويبعث له بمخلوقاته ؛ ولا تعرف ما اذا كان الذى أمامك عدواً أم صديقاً، وإذا استبعدت معاونيك، تتناقص حمايتك بنفس القدر. وعليك إنهاء اثنتي عشر مباراة للوصول إلى المعركة الأخيرة مع الياكون. إضافة إلى هذا، فصانع اللعب يعدل من حالة الأشكال بعد كل مباراة ؛ والتي تتضاعف في اللانهائي. تحتاج إلى ما لا يقل عن شهرين للسيطرة على المستوى الأول. إنها لعبة خرافية!

– هل لاحظت لوحة العلامات يالاردان؟

– أية لوحة أيها المفتش؟

– طريق «جريزول»! تخطيته لتوك. وهنا لا تتمتع باثني عشر احتمالاً للاستدراك ؛ لا يوجد إلا واحد فقط: أن تعود أدراجك!

❖

كان بيير كازاس يقيم في منزل صغير بالبلدة، تحيطه حديقة جميلة معتنى بها تماماً. اقتربت من السور وحركت جرساً صغيراً مثبتا بالدعامة. ظهر –في نافذة الدور الأرضي– رجل في الستين من عمره، له وجه متغضن.

– نعم. ماذا تريدون؟

– أنا المفتش كادان من تولوز. وهو الرقيب لاردان مساعدي. أود الحديث معك على انفراد.

ظهر فى المدخل. أدار جهازاً كهربائياً لفتح الباب. سرت في الممر ولاردان في إثري. استقبلنا في المدخل.

– لم أستحق شرف زيارة الشرطة؟ ليست عندي أخباراً سيئة كما آمل. خرجت زوجتي للتسوق في البلدة، لكنني أستطيع –رغم هذا– أن أقدم لكما فاتحاً للشهية.

أصبحنا في قاعة فسيحة، ينتظم أثاثها حول مدفأة من الحجر، ومؤثثة بذوق رفيع. أثناء حديثه، وضع كازاس عدة زجاجات على المائدة، ثم كوبين، وطبقاً من «الساليزون» المتنوع.

– لا يوجد إلا كوبان، فلا يحق لي الشراب، لأننى أحافظ على صحتي بتعاطى الأدوية.

قدم لي كاس «ريكار» و«فلوك دي جاسكونيي»(*) للاردان، الذي يحب الحلوى كثيراً.

(*) نوع من أنواع الخمور.

– حسناً أيها المفتش. تقوم بتحريات عني؟ أو عن زوجتي...

– لا. ليس هذا بالضبط أتزعجك بضع خطوات في الحديقة؟ أرغب في التمشية.

أبدى بيير كازاس بعض الدهشة، لكنه وافق على اقتراحي. قررت أن أكون مباشراً.

– حسناً. أولاً مسعاي ليس له أي طابع رسمي. أقبل-بسهولة –أن ترفض الإجابة...

أشار إلي بالاستمرار.

– ... خلال هذا الشهر، قُتل شاب في تولوز... برنار تيرو...

راقبت وجهه. لم يظهر على ملامحه أي انفعال خاص عند ذكر الاسم.

–... قُتل في قلب الشارع، ودون دافع واضح. راجعنا كل شيء. ليس متورطاً في قضية نقود، أو آداب. لا شيء. الغموض التام. وأثناء استجوابي للعائلة، لاحظت أن والد هذا الشاب مات في ظروف درامية مماثلة منذ عشرين عاما. لقد قتل في الشارع، برصاصة في رأسه، وقتها لم يقوموا بأي تحقيق حول الجريمة. وبالصدفة البحتة، قام فريق من التليفزيون البلجيكي، أتى لتصوير استعراض جاك بريل الغنائي في «الأوليمبيا»، بتسجيل اللحظات الأخيرة من حياة روجيه تيرو، والد برنار. حدث هذا في باريس، في أكتوبر ١٩٦١. كل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأنه أنت من أمسك بالمسدس...

غرس بيير كازاس يديه في جيبي بنطلونه الجينز. جمع كل قواه، وضم قبضتيه وقد احنى كتفيه. أغلق عينيه وأخذ نفساً طويلاً وشفتاه منفرجتان، ثم انحنى. جلس بصعوبة فوق أحد الأحجار الضخمة التي تحدد الممشى.

– كيف عرفت؟ كل الوثائق مصنفة «سري جداً»...

– الصدفة، كما قلت لك.

– هيا. على مهلك. اجلس أيها المفتش. أنت تقلّب ذكريات موجعة جداً. لم أتوقع ضربة كهذه. آه. عبثاً حاولت اتخاذ كافة الاحتياطات. ومادام مقدراً، لن تستطيع عمل أي شيء. ماذا تريد أن أقول؛ إنه أنا بلا ريب!

– لماذا قتلت روجيه تيرو؟

خلال جزء من الثانية تاهت عيناه في الفراغ.

– يا للعجب. لا أعرف شيئاً عن هذا. صدرت لي الأوامر، ويجب الامتثال لها.

– أهي من القوات الخاصة؟

– لماذا تسألني وأنت تعرف الإجابة؟ نعم. من إدارة القوات الخاصة... كنا مكلفين بالتخلص من أكثر القيادات إثارة للاضطرابات في منظمة الجيش السري وجبهه التحرير الشعبية. زودتنا المديرية بتصريح مرور وبالأسلحة، وبأرقام لا يمكن تحديد هويتها. وفي حالة أي حادث، كان معنا رقم مدير الأمن المباشر. لازلت أحفظه. لم يعد يفيد في شيء MOGA DOR 68.33 . حفظنا كل شيء عن ظهر قلب ؛ ولم نترك أثراً لأي شيء. وهذا ليس غريبا. فقد عشنا فى السر. وعلى السطح، لم يتصرفوا دون أية مقاومة، ولا أي رد فعل. العين بالعين. إنه لا يشبه أبداً العمل الذي تمارسه أيها المفتش، كنا مستقلين بمناهجنا الخاصة بنا في الاستعلامات والعمل.

– حتى بالنسبة لمسألة شارع نوتردام دى بون نوڤيل؟

– لا. خلال فترات منتظمة، يختارنا المركز لقتل كلب مزعج. فضلت –بكثير– نوعاً آخر من العمل، يجعل العدو محايداً. لكن تصفية رجل بسيط لم تشعرني أبداً بالرضاء. ولن أحدثك عن أشياء أخرى... تعرف. شاركت في المقاومة، وفي التحرير في الغرب، وحملت البندقية في الهند الصينية. اعتدت على النظر إلى الخطر –مباشرةً– في عينيه، فليس ممتعاً، بوجه خاص، أن تصوب البندقية في بطن ألماني أو ڤيتنامي، حتى لو كان يتأهب ليعرضك لنفس المصير. لكن أن تضع رصاصة في رأس شاب فرنسي تجهل عنه كل شيء. هو أعزل. وأنت تطعنه في ظهره... كان عليّ تنفيذ هذا. وحتى أهدئ من روعي، أقول إن ما فعلته ربما أتاح تحاشي محاولة اغتيال، أو قصرّ الحرب ساعة أو يوماً...

– وكيف حدث موضوع روجيه تيرو بالضبط؟ ومن الذي حدده لك؟

– كالعادة. أودع ضابط اتصال رسالةً في صندوق خطابات المناوبة الذي أفتحه مرتين أسبوعياً، حيث أجد التعليمات والخطوات التي يجب أن أتبعها. بالنسبة لتيرو –لو كان هذا اسمه– زودوني بصورة الهدف، وبالمعلومات التي تخص تحركاته وعاداته. اخترت العمل خلال المظاهرة. كان يقيم في أحد مواقع التجمع. ومنطقياً، توقعت عودته قبل بداية موكب المتظاهرين. فكرت في الاتصال به بأية حجة لأدفعه إلى النزول. لم أضطر إلى تنفيذ هذه الخطة. لم يعد مباشرة. اشترى تذكرة سينما أمام سينما «ركس». أوشكت على القيام بعملي في الصالة. لو فكرت. لنفذت ذلك وقتها، ولتجنبت أن يصورني فريق من التليفزيون البلچيكي.

– ألم تسأل نفسك لتعرف لماذا سيموت هذا الرجل على يديك؟

– وهل تعتقد أن منظمة الجيش السري قد عانت من مشاكل الضمير، حينما قتلت دستة من أفضل أصدقائي، عندما ملأت قاعة اجتماعاتهم بثلاثين كيلو جراماً من لدائن البلاستيك؟ جمعوهم قطعة قطعة. وأكبر قطعة لم تتجاوز –للدقة– حجم يدي.. أو عندما ألقوا بقنبلة يدوية فى حوش مدرسة؟ رأيت وجوه أطفالٍ أصبحوا عمياناً، لهدف وحيد: إنعاش الرعب. في هذه الفترة، تجنبت سؤال نفسي أصغر الأسئلة، حتى لا يزداد سخطي عشرة أضعاف.

– من أرسل هذه الأظرف؟ تستطيع أن تقول لي. مضت عشرون عاماً. وهذا جزء من التاريخ...

– ليس مؤكداً. فالعالم كله يعلم أن القوات الخاصة كانت تحت قيادة أندريه ڤيبو ؛ وأنها ملحقة –رسمياً– بالشرطة، دون أن تظهر –مع ذلك– ضمن خطة تشكيلات الأقسام. وأفضل دليل على ذلك أن أعوامي السرية تحسب في سجل تقاعدي، بل وسأبوح لك بأنها مضاعفة. ولكن هناك أيضاً فرقاً أخرى، مثل مصلحة العمل الوطني(★)، وهي تتحرك خارج أي نظام إداري ؛ قوات فدائية موازية. تشابكت خطواتنا وتداخلت، رغم أننا من نفس المهنة. لا تظن أن الزمن محا الأحقاد والضغائن. ولن يفاجئني كثيراً أن تحاول مجموعة، تحن للعودة إلى الماضي –من منظمة الجيش السري– الأخذ بالثأر لإهانة لحقت بها. أما من بين أعضاء جبهة التحرير الشعبية، فسيكون هذا بنسبة أقل. فهم الذين انتصروا. المنتصرون –دائماً– أكثر كرماً من المهزومين.

– رئيسك هذا، ڤيبو، ربما يكون وراء قرار تصفية روجيه تيرو؟

– اطلع عليه بالضرورة. فجهازنا القيادي يكرر –بدقة– نموذجنا التنظيمي كفرقة فدائية. عليه أن يكون الأكثر صرامة ليتمكن من اتخاذ القرار في زمنٍ قياسي ؛ وأن يتمتع بأكثر الفرص الممكنة للتخلص من نظم العدو الاستطلاعية. عمل مع ڤيبو ما لا يقل عن ثلاثة مساعدين، إلا أنه كان بمقدوره التصرف وحده في حالة الطوارئ.

– ما الذي يفعله اليوم؟

– سرعان ما يصبح مثلي. فمع حلّ القوات الخاصة، حصل على وظيفةٍ في إدارة الشئون الإجرامية في مديرية باريس. تعرف الحكومة كيف تكافئ أفضل موظفيها.

فجأة، انحنى نحو الأرض ودعاني إلى تقليده.

– تعال، وانظر أيها المفتش. قرية نمل. عبثاً حاولت القضاء عليها مرةً أو مرتين سنوياً. وسرعان ما تتكون –مرةً أخرى– أبعد قليلاً. هل سبق وراقبت الداخل؟

– بالتأكيد، عندما كنت أصغر سناً...

– إنها مدهشة، يشيدون السراديب والمداخل. قرأت أنه يوجد أكثر من ألفى نوع من الحشرات المصنفة «نمل». نمل أحمر، أسود، نمل العسل، نمل صياد، نمل الأمازون. وعندما تراه عن قرب، لاتفوتك ملاحظة نوع يطابق –بالضبط– طباعك الخاصة. منذ فترة قصيرة، اكتشفت أية نملة أكون...

أخذ غصن تفاح وطعن حافة قمع صغير وعريض –مفروش في الرمال –وفي اتساع عمله فئة

(★) Service D'Action Ciuique

الخمسة فرنكات، ولا يزيد سمكه عنها إلا قليلاً.

– ... إنها النملة –الأسد. هي وحيدة! تنقر حفرتها، وتقيم في أعماق الكمين، ثم تنتظر –بصبرٍ– أن تقع حيوانات تشبهها في متناول يديها...

جلَد الأرض بالغصن في غضبٍ شديدٍ. غطى وابل من الرمال النملة الأسد. نهضت. أخذ بيير كازاس ينظر إليَّ نظرة ساخرة، ثابتة وهادئة.

– أستاذ كازاس. أشكرك على الموافقة على الحديث معي.

أدركني الرقيب لاردان ولهاثه يفوح منه رائحة «الباستيش» (★)، وقد احمرَّت أنفه من كأس فاتح الشهية. قام بنصف دورة بعصبية، ودلف في طريق تولوز.

أتيحت لي فرصة مشاهدة الجراج من الداخل، حيث تصدرته مرسيدس ضخمة –لونها أخضر معدني، «إس. أو ٢٥٠»– من الستينيات، ومقدمتها بلون الكروم. الحلم!

التفت نحو لاردان:

– يالها من سيارة! هناك محظوظون.

– لا يجب أن تصدق هذا أيها المفتش. زوجته عادت خلال حديثكما في الحديقة. اعتقدت أن المستشفى أرسلتنا. لم يعد للعجوز الكثير. أرأيت سحنته؟ الأطباء يقدرون له ثلاثة أو أربعة أشهر... مرةً أخرى، واحد آخر لن يستفيد من معاشه.

– شيء لا يصدق. إنه يحافظ على معنوياته بالنسبة لشخصٍ يعلم أن لا أمل في شفائه.

– أنه يجهل خطورة مرضه. جعلوه يعتقد أنه مصاب بقرحة حادة.

قبل المنعطف، التفت من مقعدي. رأيت امرأة عجوزا –في زي رمادي– واقفة على باب الحديقة. خيِّل إليَّ أنها تسجل رقم سيارتنا. انعطف لاردان. فاختفت من مجال المرآة الخلفية.

❖

يردد الحائط المقام أمام القسم –منذ الأبد– أصداء أحداث هزت العالم. وخلال الأوقات العادية، المخصصة للتأمل، تشرد نظرتي –دقائق بأكملها– في الحجارة التي أقرأ عليها –مرات ومرات– حروفاً

(★) مشروب معطَّر باليانسون

بيضاء لجملة «أفرجوا عن هنري مارتان»، أو أرى الآثار شبة الممحوة لشعار «لـ...للاستفتاء العام»، دون أن أكون قادراً على الحسم: هذا الخط، أهو بداية حرف النون فى نعم، أم بداية اللام في كلمة لا؟. أما هنري مارتان هذا، فلم أعرف أيهم أختار من كتيبة مارتان التي تحمل نفس الاسم في القاموس:

أهو «هنري مارتان ١٨٣٠ –١٨٨٣، المولود في سان كنتان، مورخ فرنسي («تاريخ فرنسا» ١٨٣٣ –١٨٣٦). عضو «كوليج دي فرانس». أم «هنرى مارتان ١٩٣٤–١٨٧٢، ولد في دانكيرك، شاعر رمزى فرنسي «الزئبق والفراشة» (١٩٠٢). جائزة الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٢٧ عن ديوانه «خضروات ومحار».

أو أيضا «هنرى مارتان ١٩١٢ –١٩٦٧، ولد في سان– دني، معماري فرنسي. تجديد باريس. مشروع بولڤار الضواحي الدائري (تنفيذ مارتان).

ظللت متردداً إلى أن جاء يوم أبلغني فيه بوراسول، الذي أخذ يُعمق من معرفته بالوسط البحري منذ إبحار ابنه على متن الأسطول الفرنسي، أن مارتان، الذي احتفظ الحائط باسمه، عرف رطوبة الأرصفة وقسوة السلاسل، لأنه رفض إطلاق بضع مئات من القذائف –كانت في عهدته– ضد أحياء «هافونج» الآهلة بالسكان؛ فى بداية الخمسينيات.

لكن الحائط لم يعش فقط في الماضي.

في نهاية شهر يونيو، كتب فريق يروِّج لدعوة العقيدة الشيعية –وبحروفٍ بيضاء– كلاماً ضخماً منقوشا:

«التضامن مع إيران»

اكتفى رسامون آخرون، يرجح اختلافهم مع الأفكار الخومينية، بشطب «إيران» واستبدلوها بـ «فلسطين»، دون حساب رد فعل الطلبة الصهاينة الذين أخفوا فلسطين، واستولوا على الشعار لأنفسهم فكتبوا –بحروفٍ زرقاء– كلمة «إسرائيل».

وأخيراً ظهر رجل حكيم، جعل الكل في حالة وفاق. أزال بالأسطوانة أسماء إيران وفلسطين وإسرائيل. وكي يكون منصفاً، دهن أيضاً حرف الجر «مع»، ولم يترك إلا كلمة «التضامن».

عاد المأمور ماتبيو من أجازته، اقتحم مكتبي مع دقات الساعة العاشرة، ولم يمهلني حتى أوجه له «صباح خير» وديّ.

– اتبعني يا كادان. أريد بعض الإيضاحات حول ما حدث خلال غيابي.

بدا في حالةٍ مزاجيةٍ رديئةٍ. أخفت السُمرة الكورسيكية –بصعوبة– سحنته الصفراوية. لم يمسك

بالباب وهو يدخل مكتبه، فكدت أتلقاه كله في وجهي. وضع ماتبيو طرف مؤخرته على حافة مكتبه الخشبية وشبك ذراعيه على صدره. يبدو أنه اضطر إلى القيام بسرعة، فقد لاحظت أنه ارتدى فردة جورب بالمقلوب.

– حسنا يا كادان، أنا أنتظر!

– لم يحدث أي شيء استثنائي حقاً أيها المأمور، عدا إضراب الحانوتية. أخذت أحاول كسب الوقت لأعرف إذا كان كازاس قد تدخل وتقدم بشكوى من زيارتي.

– هذا إضراب لم يستمر إلا أسبوع، ثم استتب النظام. بضعة مشاجرات بين المضربين وعائلات المتوفيين. عدا هذا، فالحياة تسير في مجراها الطبيعي. شكاوى بكافة أنواعها. أنا لا أبالغ. وأنا شخصياً خصصت الأساسي من وقتي لأكبر قضية في الشهر، برنار تيرو. هناك ملف كامل عن اتصالاتي في باريس، وأيضا في تولوز...

– أهذا كل شيء؟

نطق سؤاله بصوت مرهق، وهو يحرك ذراعيه.

– نعم. لا أرى شيئاً آخر مهماً. لن أحدثك عن السطو المسلح في ممر سان جوريس، هناك أعمدة كاملة في الجرائد. ألمحت لهذا عن خبرة. فقد أكدت الصحف كلها على شجاعتي فى مواجهة رجل عصابات مسلح، وتجاهلت طبيعية المسدس الذي كان في مواجهتي. أدت الإشارة البسيطة الأخيرة إلى تلطيف موقف المأمور.

– نعم يا كادان. قرأت كل هذه المطبوعات. أهنئك على رباطة جأشك التي استطعت البرهنة عليها في هذه الظروف. ما يشغلني –حقاً– هو مشكلة الموقفيين. فما أن عدت من أجازتي حتى حاصرتني المكالمات من العمدة، ومن المساعد للإعلام ؛ برودي. احذر هذا الأخطبوط... لم أفهم شيئا من هذيانهما سوى أن الرقيب أول بوراسول تورط في الحكاية. لم أسمع أبداً شيئاً أكثر غرابة! أتتخيل بوراسول في هيئه الموقفيين؟ هل أنت على علم بهذا الاختلاق الأسطوري؟ أيمكن أن تقول لي عن مصدره؟

حاولت تخليص الرقيب أول بوراسول من الورطة:

– ليس لبوارسول أية علاقة بالموضوع. يخترعون أي شيء لإزعاجنا. لقد ألقوا القبض –بكل بساطة– على شبكة الموقفيين، وهي مصدر سجلات المجالس البلدية المزيفة منذ ١٩٧٧، بالإضافة إلى الملصق المزيف عن «الأفضل». شارك ابن بوراسول في المجموعة. لكن ليس له علاقة بالاستدعاءات المزيفة المرسلة من المديرية. ولديه دافع قوي بالغيبة، فابنه يتجول بين المارتينيك وجوا ديلوب، بفضل

الرحلة البحرية التي تنظمها البحرية الوطنية.

قذف المأمور ماتبيو بنفسه من فوق الكتب، وأتى لينغرس أمامي.

– استدعاءات مزيفة! سمعتها جيداً. ألا ترى أنها أكثر أهمية من باقي الأشياء كلها؟ لا تعنيني جريمتك ولا فقيرك بمحل المجوهرات. قبل سفري في الأجازة، تشككت فيما إذا كنت ستضعني في موقفٍ سوقي. حسناً. هذه الأوراق المزيفة. ما هي بالضبط؟

– لازلنا نبحث أمرها. تلقى عدة مئات من أهل تولوز ورقة تُقلّد –دون أى عيب– استمارة رسمية تلزمهم بالحضور– على وجه السرعة– إلى القسم، وذلك من أجل بطاقات مكافحة الإرهاب. الاستدعاء موّقع باسمك والتأشيرة تشبه تأشيرتك. وكأنه اتفاق. تم اختيار الأشخاص –المرسل إليهم هذا الأمر –من بين أكثر الشخصيات شهرةً في المدنية. كبار التجار، والصناعيين، رجال الدين، ورؤساء الجمعيات، ولا سيما تجمعات قدامي المحاربين.

– أتستطيع أن تعرض عليّ واحدةً من هذه الأوراق؟

سحبت محفظتي من الجيب الخلفي لبنطلوني الجينز. وبحرصٍ شديد، أمسكت بين أصابعي مربعاً أزرق فردته قبل إعطائه إلى ماتبيو. فحصه صامتا سطراً سطراً. ولدهشتي الشديدة، جعلته هذه القراءة المتأنية يستعيد هدوءه. أعاد إليّ الاستدعاء.

– ليس مزوراً. هذا نموذج حقيقي تماماً. وقعتّه ليلة سفري إلى كورسيكا. لا أفهم كيف حدثت هذه الأكاذيب!

أعتقد أنه لو اعترف لي بأنه قاتل برنار تيرو، لما كانت مفاجأتي أكبر من هذه.

– لم أجن بعد يا كادان! أتذكر صورتي وأنا أعطي النموذج الأصلي –من هذا الخطاب –إلى الرقيب لاردان ؛ بالإضافة إلى القائمة بالأربعمائة شخص المعنيين في تولوز. قدرت أن لديك ما يكفي من العمل في أوراق القسم القديمة، فلم أسند إليك هذه السخرة الإضافية. ما كان أمام لاردان إلا لعبة التصوير الفوتوغرافي ؛ وضمان وضع النموذج في المظروف... إذهب وات لي به. أريد توضيح هذا فوراً!

كان الرقيب لاردان ينهى شوطاً في الفليبير بمقهى قريب. اقتلعته من مائدته الوامضة، مائة مرة قبل الشوط المجاني؛ مخاطراً بأن أجعل من نفسي عدواً له. شرحت له الوضع بسرعة قبل الوصول إلى مكتب ماتبيو. رسم المأمور لنفسه قناعاً تراجيدياً. رفع ذقنه عندما انفتح الباب:

– لاردان، أنت مدين لي بتوضيح. حاول أن تبدو مقنعاً، لو أردت ألا أنقلك عسكري حراسة في برج المراقبة! المفتش كادان أطلعك على الأمر كما أتصور. ما الذي لديك لتقوله تبريراً لسلوكك؟

– لا أعرف...

– حسناً. الأمر يتعلق بشخصٍ يضحك عليك أنت يا لاردان!

–... لقد أحضرت العمل إلى مدام «جولان» في السكرتارية. شرحت لها ما تريد تنفيذه مستخدماً نفس عباراتك.

– براڤو أيها الرقيب! أعهد إليك بمهمةٍ محددةٍ –ذات أهمية كبرى –وأنت تُسرع ببيعها لأول عابر سبيل! إذهب وات لي بمدام «جولان».

غاب لاردان فترة قصيرة وظهر ثانية بصحبة السيدة المهيبة الهائلة، والتي ترأس –منذ سنوات طويلة– إدارة تسليم البطاقات الشخصية وجوازات السفر. شغلت حيزاً كبيراً من الفراغ. إلا أنها أخذت تحاول، مع ذلك، ألا تجعل أحداً يشعر بها. بديهي أنها تعبر العتبة المقدّسة لصاحب العمل لثاني مرة في حياتها المهنية، بعد المقابلة التي تسبق التعيين للوظيفة. عَكَسَ سلوكها تقديرها للحدث حق قدره. أثبت ماتبيو أنه يتمتع بكثير من المهارة. فبأقل جهدٍ ممكن، نجح في اكتشاف السر. كانت السيدة المسكينة هي الطيبة المجسدة. فنادراً مارفضت خدمة أي زميل مرتبك. ولم يمر يوم دون أن يطلبوا منها إنقاذاً من هذا النوع أو ذاك، بدعوى كثافة العمل الحالي. ودائماً ما صحب طلبهم عبارة من نوع «سأرد لكِ نفس الخدمة عند الحاجة» ؛ والتي هي شكلية تماماً. كانت مدام «جولان» الخدومة تطوي، وتلصق، وتدخل الأوراق في الملفات، وتدبِّس للقسم كله.

عندما ظهر لاردان متوجاً بمهمته، وطلب منها –باسم المأمور ماتبيو– أن تتولى إرسال أربعمائة استدعاء لبطاقات مكافحة الإرهاب، وافقت بلا تردد ؛ وشكرت الرقيب لأنه فكرٌ فيها في عمل بهذه الخطورة. وفي اليوم التالي، تصرفت بالمثل، عندما توسّل إليها رئيس إحدى الإدارات لتضع أشياء في مظروفٍ. وتلى ذلك إرسال ثلاثمائة وثمانية وسبعين ورقة مقواة نصها كالتالي:

«إدارة بوليس تولوز الإجتماعية، وكل شرطة الضواحي، تشكركم على هباتكم الكريمة التي ستخصص –مثل كل عام– في التخفيف عن آلام الأرامل واليتامى من زملائنا، الذين سقطوا أثناء كفاحهم من أجل الأمن العام».

لا أحد يعرف كيف استبدلت قائمة «مكافحة الإرهاب». بالقائمة التفصيلية الخاصة بأسماء المحسنين. لكن إذا ما اشتكي علية القوم في تولوز –بمرارة– من اعتبارهم جزءاً من الأشباح الكوزموبوليتانية المنذرة بالخطر، فلا أحد من واضعي القنابل، أو المشبوهين، قد تقدم ليعبر عن دهشته من شكره على هبته الوهمية.

كان لاردان أول من غادر المكتب والسكرتيرة في إثره. ذرع ماتبيو الغرفة في خطواتٍ واسعةٍ، وهو يرغي ويزبد من مرؤوسيه ومن الإدارة بشكل عام.

– تصور يا كادان ؛ ساعة من العمل وها أنا ذا وقد فقدت كل فوائد أجازتي. عاد إليّ توتري

العصبي مرةً واحدةً. شهر من الهدوء والاستجمام كان جميلاً جداً أن يدوم... أفضل لو يتحمَّل ابن بوراسول هذا الخطأ. على الأقل هو ليس واحداً من «البيت». آه. يبدون ماكرين حقاً. ما الذي سيقولونه عني؟ متصالح؟ هذا اللاردان لن يخسر شيئاً لو انتظر. حتماً سيعرف ما هو برج المراقبة. وعد مني! حسناً. ليس هذا كل شيء. جريمة القتل هذه، أهناك تقدم؟

– ليس بالشكل المطلوب ؛ ولا بالسرعة التي آملها. لدينا بعض الأدلة. قتل برنار تيرو على يد باريسي عمره ستون عاماً. لدينا أقوال شاهد لاحظ القاتل –خلال مغادرته لسيارة رينو ٣٠. ت. إكس، لونها أسود، ،مسجّلة في باريس –أثناء تتبعه للضحية. حدث هذا أمام المديرية، قبل الاغتيال بدقائق. فحص لاردان كل المراكز الحساسة بين باريس وتولوز، والطرق السريعة، والقومية. لكن، لا أحد يتذكر عبور سيارة المشتبه فيه، أو شخصاً تتطابق بياناته مع بيانات القاتل.

– لو إن لاردان هو الذي يتولى هذا العمل، فمن الأفضل مراجعة..

– لا أدافع عنه، لكنني أثق فيه بالنسبة لهذا العمل.

– اتفقنا. استمر.

– بالنسبة لتحديد الباعث، لم نتقدم كثيراً. كان الفتى سيتوجه إلى المغرب برفقه خطيبته...

– لا أعرف لماذا يعرج باريسي على تولوز في طريقه إلى المغرب! ليست هذه أكثر الطرق مباشرةً نحو مراكش.

– لا. في الواقع، برنار تيرو وخطيبته دارسان للتاريخ، وقد قاما بانعطافة في تولوز للاطلاع على وثائق في الكابيتول والمديرية. أكداس من الأوراق عن التاريخ الإقليمي. اطلعت عليها طوال يومين مع لاردان ؛ بلا أية نتيجة. غير أنني ذهبت إلى باريس، واكتشفت أشياء أكثر إثارة. والد الضحية قتل في ظروف مزعجة حقاً ؛ في أكتوبر ١٩٦١، خلال مظاهرة نظمها الجزائريون. أستطيع حتى أن أقول أنه قتل بطريقةٍ مدروسةٍ.

– ومن قتله؟

– للوهلة الأولى، تبدو المسألة تصفية على مستوى سياسي، لدواعي المصلحة العليا. عثرت على العميل الذي كلفوه بهذا العمل. وهو يقيم على طريق منتوبان، في بلدةٍ صغيرةٍ. وعلى المعاش حالياً. في ذلك الحين، كان يتبع القوات الخاصة ؛ نوع من القوات الفدائية السرية والتي شكلتها الوزارة لإضعاف المسئولين عن منظمة الجيش السري وجبهة التحرير الشعبية. وعند الضرورة، تحييدها نهائياً. أدار المكتب أندريه ڤييو، وهو شخصية هامة في مديرية الشرطة. وطبعاً تصرف بحيث يتجنب التحقيقات وتشريح الجثة. الملفات خاوية، ولا أعرف ما إذا كان مفيداً ملؤها ؛ فكل هذه الاحداث في مأمن بمرسوم عفوٍ.

– ولكنك تعتقد أن المشكلتين مترابطتان، أليس كذلك؟ ليس صعباً تكوين فرضية مفادها أن الابن تيرو توصّل إلى تحديد هوية قاتل والده، وأنه أتى لمنطقتنا ليثأر له. وهو ما يبرر خط سيره.

– لن يزعجني هذا كثيراً. لكن لدي أكداس من التفاصيل لا تدخل في هذا التصور. أولا بيير كازاس. فعدا السن، لا تتطابق أوصافه –كثيرا– مع البورتريه الذي رسمه لنا الشاهد. ولا أظنه يعقّد –بلا طائل– من عمله، فيحصل على سيارة مسجّلة في باريس ليرتكب جريمته في وضح النهار، بأقصى حدٍ من المخاطر!

– إذا ما كان محترفاً. ونحن بصدد محترفٍ من الطراز الأول. وهذا هو –بالضبط– نوع المنطق الذي سيحب أن يرانا نتبناه. القاتل يسيطر تماماً علَى الوضع يا كادان. لو لم تجد أثراً، لهذه الرينو ٣٠. ت. إكس، فذلك ربما لأنها لم تقطع هذه المسافة من باريس إلى تولوز!

– من الضروري أن توجد مع ذلك! فلم يُعلن عن سرقة أية سيارة –من هذا الموديل– خلال الأسبوع السابق لموت برنار تيرو. لقد فحصت –شخصياً– القائمة القومية

–ولماذا لا نفترض أنهم أعاروه هذه السيارة؟ ابحث قليلاً في جدول بيير كازاس الزمني وانظر إذا ما كان أحد أصدقائه لا يقود رينو سوداء. هل رجعت إلى الأرشيف بعد أن كشفت حكاية المظاهرة الجزائرية؟

– لا. ولماذا يجب عليَّ العودة؟

– لو أنني مكانك، سأدفع لنفسي ثمن جلسة إزالة غبار جديدة. أنت الآن تعرف ما الذي تبحث عنه: الرابط مع هذا البيير كازاس أو مع القوات الخاصة. المسألة تستحق عناء التنقيب ساعتين أو ثلاثاً. لديك فرصة ضئيلة في اكتشاف تفسيرٍ ما. لكن، ربما تعود بخفي حنين؛ لو أن الضحية كان يطلع –حقاً– على ملف يتعلق بعمله كمؤرخ... في هذه الحالة، ستحتفظ قضية روجيه تيرو بغموضها إلى أن يأتي اليوم الذي سنضع يدنا فيه على وثيقة للحياة، أو خطاب عادي بقطع علاقة ما. أجمل الجرائم هي –غالباً– أكثرها اعتيادية. أليس كذلك؟

– ليست هذه الجريمة. هناك مصادفات كثيرة وتشعبات. والحق يقال يجب أن أكشف قاتل برنار تيرو. والشيء الوحيد الذي يحمسني –حقاً– هو معرفة لماذا يصفّون مدرس تاريخ صغير –في ليسيه لامارتين– بواسطة عميل من البوليس السياسي يتخفى في زي قوات الأمن الجمهورية، خلال مظاهرة جزائرية؟ لو كنت واثقاً من نفسي بما فيه الكفاية لذهبت إلى رئيس القوات الخاصة السابق –أندريه فيبو– لأسأله عن أسباب كل هذا. لكن كل شيء تم العفو عنه. لن يخاطر بشيء عند الكلام...

– لن أعلمك كيف تجري تحقيقاً يا كادان؛ رغم أنني لن أتخلى أبداً عن إسداء بعض النصائح. اسمع. اعمل بطريقتك، تستطيع أن ترجع إلى قديم الزمان، إلى «آليزيا» أو إلى «سان –بارتليمي»، لو

رأيت ذلك ضرورياً، وأنه سيؤدي إلى القبض على المتهم. الهدف هو حل المشكلة. وبوضوح، لا أعبأ بالطرق التي تتبعها للوصول إليه. لكن، إذا خرجت -إلى حد ما- عن الشرعية، فلا تتوسع في الموضوع، وأعلن -بصوتٍ عالٍ- أن ذلك نابع من كادان، لا من أحد آخر. لا أريد أن يرتبط اسمي بأية تعديلات من أي نوع! ليكن هذا في علمك.

- لقد كنت دائماً مسئولاً أيها المأمور. أنا على اقتناع بترابط هاتين الجريمتين...

- الرابط -حتى هذه اللحظة- على مستوى عائلي فقط. لا شيء يسمح لك بالتعميم. كن شديد الحذر. ذكرت تواً جريمتين، في حين أنه منذ ما لا يقل عن خمس دقائق، افترضت أن عملية قتل روجيه تيرو محمية بالعفو. انتبه تماماً إلى موقع قدميك يا كادان.

- أحاول أيها المأمور.

- لا يكفي أن تحاول. ولا تركز -بشكل خاص- على «اعتقاداتك» الراسخة، أترك هذا إلى القضاة. أنا بحاجة إلى متهمٍ حاضرٍ بنفس قدر حضور الجثة التي التقطناها بالقرب من كنيسة سان -جيروم. والأفضل -من جميع النواحي- أن تظل على رأس القسم حتى انتهاء هذا التحقيق. ستكون حركتك أكثر حرية. لازال لي يومان أو ثلاثة من أجازتي. كنت سآخذهم مع الأعياد. لكن لا شيء يمنع استخدامهم هذا الأسبوع! ما رأيك؟

لم أطلب أكثر من هذا.

- موافق. اللعبة تستحق ثمنها.

وعلى أية حال، لدى انطباع غامض بأن هذا الكرم المفاجئ يخفي شيئاً وراءه. خلصني ماتيبو من هذا الشك.

- سأستغل الأجازة في بعض الإصلاحات المنزلية. هناك -دائماً- ما يجب عمله في منزلٍ صغيرٍ. آخر شيء يا كادان، تصرف مع برودي في حكاية البطاقات المتبادلة. أعتمد على حسك الدبلوماسي في حلها للأفضل.

❖

الفصل الثامن

أوفيت بالتزامي تجاه هذا البند، فعطلت كل شيء من أجله واتصلت بمساعد العمدة للإعلام. تركني برودي أتحدث أقل من عشر ثوانٍ قبل أن يقاطعني بشراسة:

– أيها المفتش، لا تعنيني بطاقات الشكر الأربعمائة. إنها مجرد تفاصيل. اعتقدنا أننا قبضنا عليهم منذ اكتشاف لوح الأوفست –في مطبعة البلدية– حسنا. لا. يبدو أن الذى يدير آلة الأوفست أعطانا قائمة أسماء اختارها صدفة. فها هو عملهم التخريبي ينطلق من جديد فيعلنون –في كل مكان– عن توزيع خطاب من المعهد القومي للإحصاء والدراسات الاقتصادية «إنسى»(١)، عن إلغاء إحصاء السكان العام في تولوز بقرارٍ من وزير الداخلية. وها هو الخطاب...

سمعت صوت فرّد الورقة المميز.

– ... «نظراً لسرقة الكثير من الملفات السرية بواسطة مجموعة تدعى «إنسى»(٢) (التدخل القومي إزاء المعدات الإلكترونية). ونظراً لظروف العقوبة المشددة، وحيث أن نظام الاختيار المعمول به –من جانب البلدية–– للموظفين القائمين بعمليات الإحصاء، قد سمح بتسللٍ فرديٍ، فلم يكتفوا بما يشعرون به من ضيق شرعى ضد الكمبيوتر، بل وأخذوا يبحثون عن الإساءة إلى نظام الترتيب المنهجي لبطاقات الأفراد، وتخطيط العلاقات الاجتماعية، لذا تم إلغاء الإحصاء فى المنطقة التولوزية».

ويطلبون من الناس –بعد ذلك– التوجه إلى البلدية لسحب ملفاتهم! إنهم ليسوا مجرد ٤٠٠ شخصٍ علينا تحمل مسئوليتهم، بل ما لا يقل عن عشرة آلاف فردٍ، طبقاً للتحقيقات الأولية.

أنهيت المكالمة التليفونية بسرعة، وتركت برودي في هذياته الذهني. استدعيت بوراسول. كان قد توصّل –بعناية– إلى فرضية مفادها أن قتل برنار مجرد غلطة بسيطة، وأن الضحية لم تكن هدف القاتل الحقيقي. وبعد عملٍ دقيقٍ، نجح بوراسول في التوصل إلى قائمة بأغلب الأفراد الذين تواجدوا في مكاتب المديرية يوم الجريمة، بين الساعة الرابعة والسادسة مساءً.

– أتعرف أيها المفتش، بدلاً من وضع الأفراد فى مخابئ الأحياء الخطرة، الأفضل تشغيلهم مضيفي استقبال في قاعة المديرية الكبرى. خذ مثلاً جويه كورتانزيه. صدرت ضده –إن لم أكن مخطئاً– مذكرة بالقبض عليه في جريمة سرقة مسلحة بالإكراه.

– نعم. هذا صحيح.

(١) INSEE

(٢) INSEE يلعب المؤلف بالمطابقة بين الحروف الأولى

– لكن هذا لا يمنع مساعد السكرتير العام ومدير المكتب، من استقباله بشكلٍ رسمي جداً.

– هيا أيها الرقيب. إنك تعمل منذ فترة طويلة نسبياً لتعرف أن نجاحنا يرتكز –في ٩٥٪ منه– على الأسرار التي يفشي بها المخبرون. لقد اكتشفت –لتوك– الموضوع السهل الذي كان يجب التفكير فيه. ألديك –حقا– بعض المناوبات حول مدارس الليسيه لتتبع مرور هذه القاذورات... أليس كذلك؟

– نعم. ولكن ليس من هذا المقام!

– وعدا هذا.

– عثرت على أحد معارفي القدامى. الرقيب السابق بورتيز، وهو يشبه –بشكلٍ غريبٍ– برنار تيرو. نفس القوام والهيئة. هو أكبر منه بخمسة أعوامٍ. ولكن من يعمل استنادا إلى الصورة، يظل الالتباس وارداً...

– لا أذكر هذا الاسم... بورتيز.

– كان بطلاً في التصويب بالمسدس ؛ نجم الفرقة الأرضية الثانية. إلى أن جاء اليوم الذي أطلق فيه الرصاص –دون سابق إنذار– على سائق موتوسيكل. فقد حدث وأن اختبأ لضبط عصابة لصوص سيارات في حالة تلبس، عصابة الـ «بي. إم. دبليو». وفزع رجل يقود موتوسيكلاً في الحي عندما رأى شخصاً يرتدي الملابس المدنية، يتنزه وفي يده زجاجة خمر كبيرة، فلاذ بالفرار. أخرج الطبيب الشرعي خمس رصاصات استقرت في مساحة لا تزيد عن حجم يدي... طردوا بورتيز من الشرطة. وهو يعمل الآن في ملهى ملاك الأراضي. أذكر أن أصدقاء الكونستابل قد أقسموا أن يثأروا له... غالباً تحت تأثير الغضب. وبعد ذلك، يتكلس الموضوع...

– نعم، أو يتحقق. تطلب الأمر عدة أعوامٍ. لكن ترامونى قُتل بسبب جريمة بيير أوڤري. حتى لو كان هناك احتمال واحد في الالف –لأن يقودنا هذا إلى القاتل –فسنقطع الشوط إلى آخره. سنرى إن كان يعض!

❖

قررت العودة مبكراً هذا المساء. استلقيت في السرير مع ختام نشرة أخبار الثامنة مساءً. يمكنني اختيار تسجيل معاد عن المواجهه بين بيكون لابروبار وكنوك لي زوت ؛ في برنامج «ألعاب بلا حدود» ، وهي مجلة متخصصة في نهضة فن الدراما الغنائية في منطقة ڤوج، أو المناقشات الخاصة بتوزيع أيام العطلات. لكن، لا سبيل لذلك. فشريط الڤيديو في بواتيه. عدت إلى جوتنبرج. أخذت أفتش في أرفف المكتبة بحثاً عن كتابٍ منسيٍ. وقعت على دراسة روجيه تيرو غير المكتملة، والتي أعطتها لي كلودين.

تأملت الغلاف، وقررت فتحها. لم يكن كتاباً بالمعنى الحرفي للكلمة. مجرد مخطوط تمهيدي فقط، لكنه معدّ للنشر كما هو. ازدانت صفحة ما قبل العنوان بشعار مدينة درانسي ؛ وفوقه إهداء منسوخ: «إلى ماكس جاكوب»(★) كتب العنوان بحروف اللتراسيت

درانسي منذ نشأتها حتى يومنا هذا

بقلم روجيه تيرو

المدرس بليسيه لامارتين

قلبت صفحات المخطوط بسرعة. احتوت عدة صفحات على مساحات بيضاء يحيطها إطار مرسوم بالقلم الرصاص وتحته تعليق. حدد روجيه تيرو المكان الملائم للرسومات، والصور، والرسوم البيانية، والخرائط. وفي بضع فقرات،تناول الفصل الأول، من الدراسة، تاريخ الأرض في العهد الجيولوجي الثاني. لم يكن المأمور قد وصل إلى هذه المرحلة التاريخية، فقد توقّف عند فترة آليزيا. قرأت بشكل متناثر وأنا التقط معنى النص العام: «... غطى البحر المنطقة الباريسية. ركدت رواسب طينية وجيرية في الموقع الذي ستولد فيه –بعد بضعة آلاف من الاعوام –مدينة درانسي».

قفزت عدة آلاف من السنين، متنقلاً إلى الفصل الثالث. علمت أن اسم المدينة يرجع إلى مستوطن روماني «تيرانتياكوم» تحوّل إلى «ديرانتياكوم»، «ديرينتي»، ثم «درانسي».

تسليت بتصريف لقب أسلافي في الاتجاه العكسي. نجحت في الوصول إلى «كارادينا تيكوم» مرضية.

وفي عام ٨٠٠، لم يكن للضيعة مدرسة، وانحصر عدد سكانها في مائتي شخصٍ. قفزت ثمانية قرونٍ مخصصة لبذر الحبوب والحصاد، لا تعرّف على أول شخصية محلية شهيرة «كريت دى بالوييل، رائد الميكنة الزراعية» ؛ كما جاء في عنوان هذا الفصل الفاتن. قرر روجيه تيرو الاحتفاظ بصفحة كاملة لصورة نصفية لهذا العالم النابغة. كتب: «ملحوظة: صورة منفذة من مكتب الإكليشيهات». غرقت في ببليوجرافيا كريت دي بالوييل الموجزة. وُلد في درانسي عام ١٧٤٠. اخترع الاسطوانة المسننة، وقطاعة الجذور، وقطاعة القش، ومحراث البطاطس الدائري. شارك –مناصفةً– مع صديقه الحميم بارمنتييه في تنمية مبيعات ثمرة البطاطس.

حاول روجيه تيرو –في فقراتٍ غنائيةٍ قديمةٍ، وإن تكن مؤثرة وفعالة– وضع حدٍ لانعدام العدالة

(★) ماكس جاكوب. شاعر فرنسي ولد عام ١٨٧٠ ومات في معسكرات الاعتقال في درانسي ١٩٤٤ و«جام النرد» Cornet á dées 1917 من أشهر دواوينه من الشعر المنثور.

هذا، وثابر على تدعيم رجله العظيم.

لم تترك الثورة أثاراً عميقة في الأخاديد الدرانسينية. لكن سقوط وانفجار منطاد موّجه، ومنفوخ بالغاز -في ١٦ أكتوبر ١٩٧٠ في لاڤيلات- شغل مساحة كبيرة من الكراسة.

احتلت الحقبة المعاصرة الجزء الثاني من الكتاب، الذي استهله باستشهاد من «البؤساء»:

«قلب باريس، الضاحية الدائرية. ها هي -بالنسبة للأطفال- كل الأرض. هم لا يغامرون بأنفسهم إلى أبعد منها أبدا. فلا وجود -بالنسبة لهم- لأي شيء أبعد من خطوتين: إيڤري، جانتي، أوبرڤيلييه، درانسي. هنا ينتهي العالم».

أغلقت عيني لحظة وجيزة. ذكرتني هذه الكلمات بالساعات القليلة التي أمضيتها مع كلودين نتحدث عن آثار الحصون.

تنقلّ روجيه تيرو -بسرعة فائقة- عبر الأحداث السياسية القومية، إذا كانت بلا أثر على مسقط رأسه. وبالمقابل، تزايد إلحاحه على الاختلافات الحزبية للمنتخبين في المجالس البلدية، وعلى تشيد أولى التجهيزات الحديثة. شدد -في فصوله الأخيرة- على المواهب الريادية لعمد ما قبل الحرب، ومشروعهم الحضري الذي أثار اهتمام المدينة، والذي استهدف بناء مدينة / حديقة شاسعة، تضم عدة آلاف من المساكن الفردية والجماعية. نوع من العاصمة النموذجية، مجمّع انتاجي للقرن العشرين، يمكن لكل ساكن فيه التمتع بمجمل الخدمات والتجهيزات الجماعية: المدرسة، الاستاد، المستشفى، الحضانة، والتجارة...

بدأت أعمال المدينة «الفسطاطية» عام ١٩٣٢، وتضاعف عدد السكان ليصل إلى حوالي أربعين ألف نسمة.

وفي عام ١٩٣٤، طُرح برنامج أكثر جرأة: ستؤوي درانسي أولي ناطحات السحب الفرنسية! خمسة أبراج، يضم كل منها أربعة عشر طابقاً؛ وسلسلة أخرى من المباني الأفقية. مدينة ضخمة -على شكل حدوة حصان- من أربعة طوابق تضم عدة مئات من المنازل الموزعة على ثلاثين طابقاً. عمدوها باسم «لاموات»، على اسم مكان يقال أنه يقع بالقرب من المدينة.

لكن الأمل في حياة مشتركة -والذي حرّك عقول المعماريين الطليعيين -واجه للأسف مصيراً غريباً.

كشفت التقنيات، المستخدمة وقتئذ في البناء، عن حدودها، فظهرت عيوب عديدة حتى قبل تأجير الشقق. وإذا كانت البيوت الصغيرة قد وجدت مستأجرين لها، فأوائل الناطحات لم تلق النجاح الذي توقعه لها مؤسسوها لدى الجمهور. ظلت أدوارها فارغة، رغم ضآلة الإيجار.

لزم الرضوخ للأمر الواقع. لم يكن الرجال المَهرة قد نضجوا بعد ليأووا إلى حيطان بيوتهم! باعوا المدينة -بأكملها، وبأرخص الأسعار- إلى وزارة الدفاع، التي آوت فيها وحدة من الحرس المتنقل..

نهضت لحظة لأحتسي البيرة وأستريح. عدت إلى مغامرات المدينة/ الحديقة في درانسي. امتلأ روجيه تيرو حماساً لموضوعه، فأفاض في التفاصيل.

حدد -بالنسبة لعام ١٩٤٠ -الرقم الدقيق للعساكر الألمان الذين أسروا على الجبهة، واعتقلوا في مدينة «لاموات». التقطت هذه التفصيلة الكاشفة: نجح الجيش الفرنسي في أن يصنع أسرى له خلال الحرب العجيبة.

لكن سرعان ما حلّ الألمان في درانسي. فتحولوا من مأسورين إلى آسرين. ومنذ صيف عام أربعين؛ اعتقلوا بقايا الجيش الفرنسي، والانجليزي، إضافة إلى مدنيين يوغوسلاف ويونانيين، ألقي القبض عليهم في باريس. وتحولت مدينة «لاموت» -رسمياً- في ٢٠ أغسطس ١٩٤٠، إلى معسكرٍ للاعتقال، مخصصٍ لتجمعات اليهود الفرنسيين قبل ترحيلهم إلى المانيا وبولونيا المحتلة.

ذكر روجيه تيرو رقم ٧٦٠٠٠ شخصٍ، نساءً وأطفالاً وعجائز، تم تجميعهم خلال ثلاثة أعوام على بعد بضعة كيلو متراتٍ من ميدان الكونكورد،ثم ترحيلهم إلى آوشفيتز. وقدّر عدد الناجين بما لا يقل عن ألفين.

كان ثلاثة آلاف شخص يعبرون درانسي أسبوعياً، يحرسهم أربعة جنود ألمان، ويساعدهم -في مهمتهم- عشرات من الجنود الفرنسيين الإضافيين. أكد روجيه تيرو على الرقم أربعة.

استخدم تيرو مقتطفات من الصحف، وأحاديث مع الناجين من الموت، ليعيد تمثيل حياة المعسكر. أرغمت نفسي على قراءة بعض الفقرات:

«عند حديثنا عن درانسي أمام الأطفال، اخترنا اسماً يكاد يكون مرحاً «بيتشيبوي» ؛ حتى لا نخيفهم. درانسي كانت «بيتشيبوي».

شطبت الصفحة التالية بالقلم الرصاص، وأضيف إليها شرح تفسيري «نسخة مصورة -طبق الأصل- من خطاب قائد درانسي- يطلع فيها «استمان» على موعد قيام أول قافلة تضم أطفالاً يقل عمرهم عن عامين (القافلة / د ٩٠١٠/ ١٤لـ «٨٠١٤ -١٩٤٤»).

جُمعت بعض الوثائق في مظروف من ورق كرافت. أخرجتُ منه مذكرة من مكتب التموين بتاريخ ١٥ أبريل ١٩٤٣:

«رداً على مذكرتكم بتاريخ التاسع من الشهر الجاري، يشرفنا أن نبلغكم بالمعلومات التالية:.

(١)	أطفال أقل من تسعة أشهر	٣٤٧
(٢)	أطفال من ٩ أشهر حتى ٣ أعوام	٨٨٢
(٣)	أطفال من ٣ سنوات حتى ٦ أعوام	١٢٤٥
(٤)	أطفال من ٦ أعوام حتى ١٣ عاما	٤١٣٤
(٥)	كميات الألبان الواجب تحصيلها –حالياً– (شهريا):	٣٢٢٣,٥٠ لترا.

«واستناداً إلى تقلبات القيمة الفعلية المفاجئة والمتكررة، فإن المعلومات الواردة أعلاه لا تعطي إلا فكرة تقريبية، ويمكن لعدد الأطفال أن يختلف بـ + أو(–) ٥٠ وحدة من يوم لآخر»

كتب روجيه تيرو بخطه –على رزمة أخرى من الأوراق– العنوان التالي: «عناصر مرقمّة يجب تصنيفها». تدرجت أعمدة طويلة من الأرقام تحت عناوين وأبواب، ضاعف أسلوبها الخشن من مأساويتها: «تاريخ الترحيل لمعسكرات الاعتقال»، «قافلة»، «رقم الأمر»، «معسكر الوصول»، «منتخب هـ»، منتخب إف»، «الباقون على قيد الحياة حتى ٤٥».

وفي الجداول الأخيرة، ذكر المنشأ الجغرافي للمعتقلين في درانسي، منطقة منطقة، بالاضافة إلى نوع من الترتيب المرتبط بالفئات العمرية.

احتلت المنطقة الباريسية رأس القائمة، تلتها منطقة ميدي –برينيه. وبعيداً، بمسافة كبيرة، الشمال أو الوسط، حيث استطاع الرعايا اليهود –فيما يبدو– النجاة من كماشة الجستابو. استولت المنطقة الباريسية على كافة الأماكن الأولى في عرض السباق المشئوم هذا، عدا ما يخص الفئة العمرية الأولى، الخاصة بالأطفال أقل من ثلاثة أعوام. وبينما أعلنت الغالبية العظمي من الأقسام عن نسبة مئوية تراوحت بين خمسة وثمانية في المائة، بلغت باريس أحد عشر في المائة، وتخطت ميدي –برينيه حاجز الإثني عشر في المائة.

أغلقت كتاب روجيه تيرو الذي لم يكتمل وأنا فريسة ضيق نفسي عميق. ترددت طويلاً قبل أن أجرؤ على إطفاء النور. تأخر النوم في المجيء. نهضت لمتابعة آخر نشرة أخبار مصّورة. نمت حتى الصباح، حين بدأ الشارع يمتلئ بأصوات العمل الأولى.

دخل المأمور ماتبيو المشهد أولاً، مرتديا ملابس غريبة: دثار بقبعة سوداء واسعة، و«كاجول»(★) يغطي رأسه. عرفته حتى قبل رؤية وجهه. أخذ يسير ببطء، مجتازاً ممراً تتلاشى بدايته في اللانهائي. ظهرت على قناعه انعكاسات النيون المخبأ في الأرض والمائل للزرقة. تقدم، ورأسه مائلة على كتفه اليسرى، وهو يوزع، على عدد غفير من الكائنات الهزلية، مربعات صغيرة من الكرتون الأخضر، تزينها

(★) كاجول: غطاء للرأس لا يبرز منه إلا العينان ويرتديه الرهبان.

صورة برودي. وجدت نفسي في طريقه عارياً. لفت انتباهي إلى هيئتي غير اللائقة، وسلمني ورقة. تحت صورة المساعد للإعلام، تعرفت على ختم القسم الرسمي. وما إن حاولت فك طلاسم المتن، حتى اختلطت سطوره.

استدرت –بعدئذ– نحو المشاركين الآخرين في هذه الاحتفالية المحيِّرة! وتحققت –دون جهدٍ– من هوية ما لا يقل عن نصف المحيطين بي.

اختلطت العائلات التي ترتدي ملابس الحداد، بالمضربين السابقين في قسم خدمة المقابر، بينما حرصت وحدة من الحرس المتنقل على إخراج كميات هائلة من التبْر من أحشاء فرس النهر الضحاك المصفرة. وفجأةً، جمدَّ الحاضرين صوت أصم يتألف من صرير شديد الحدة، مختلط بانفجارات. وتبخر ماتبيو في بريق البلاط.

اتسع الممر، وأخذت الجوائط، وقد لانت، تتحرك في إيقاع قلب غافل. عندئذ، أظلم الأفق، وبرزت سيارة رينو سوداء مترامية الأطراف، وهي تندفع نحونا مباشرة. بدت إطاراتها –المنصوبة على خطوط سكك حديد لامعة– وكأنها تتوالد من حركتها.

وخلف المقود، كان ثمة وجه قبيح مقطب، شوهته عيوب واقية المطر. ميزت –من الوهلة الأولى– ملامح بيير كازاس. أصابني شلل، فأغلقت عيني حتى لا أرى موتي. عبثاً. ظلت نظرتي تخترق غشاء جفني. أصيب رجل قوات الأمن الجمهورية بنوع من الجنون، فأخذ يقفز من على مقعده وهو يصيح. امتلأ فمه، وحاجباه، ومقلتاه، وأنفه بآلاف النمل الأسودِ ؛ بقوائمٍ فسفورية. أخذ ينتزعها بالآلاف ويلقي بها نحو زجاج السيارة. والسيارة تسحب ؛ في جولتها المجنونة، صفا لا ينتهي من عربات القطار. عربات قطار بضائع من خشب قديم بني اللون ؛ أخذت دعاماتها تنطوي من عنف صدمات السحب. تألفت نهاية القطار من أوعية بلا غطاء راحت تتقافز في الهواء وتسقط –بفظاظة– على القضبان، فتحدث حزمات من جزيئات كهربائية لها رائحة الغبار. وفي كل قفزة، تنبثق من الأوعية آلاف الجماجم الجبرية البيضاء، والتي أخذت تنفجر على حجر الممر.

ظهرت كلودين شينيه في طرف غابة تقع على يساري، وبصحبتها موظف الأرشيف –ذو القدم الخشبية– من مديرية تولوز. نجحا في إيقاف مسيرة العربات العملاقة الجامحة، وفتحا الأبواب الرصاصية اللون. واحداً تلو الآخر. خرج منها مئات من الجزائريين الملوثين بالدماء. شكلوا طوابير هائلة محزنة حجبت الأفق. فصل السيارة موظف من هيئة الأتوبيسات الباريسية، وحرر امرأة عجوزاً من الصندوق المسجونة فيه. اعتقدت أنني أرى أول ابتسامة لمدام تيرو عندما انهار القطار. أصدرت كل العجلات صريراً شكلَّ نواحاً لا يحتمل. حطت يدان عملاقتان قبيحتان على جانبي غطاء الرينو المعدني، وغطى الإبهامان مصباحي السيارة. شعرت بنفسي وقد سحبت بعيداً جداً، في آخر سريري. اختلط المشهد كله، في سرعة باعثة على الدوار، وتحوَّل إلى نقطة صغيرة حمراء، لحقت باللانهائي. تمكنت من رؤية خيال ذكرتّني حدوده الخارجية بلاردان. كان منحنياً على شاشة لعبة فيديو جيب صغير يشبه

السيارة. غطت موسيقى أليمة على قرقعات القطار، وأخذت طابعاً متأرجحاً. وكانت آلاف من الأصوات الطفولية تصنع إيقاعاً لاختفاء العربات: «بيتشيبوي، بيتشيبوي، بيتشيبوي..»

استيقظت مذعوراً وقد غمرني العرق البارد. ظللت دقائق طويلة تائهاً، أحاول خداع الخوف ونسيان مشاهد الموت. حاولت فرض صور أخرى على ذهني: هذه النزهة بين الحصون، والعشاء عند دالبوا، بلا جدوى. كان وجه كلودين يتلاشى ويحل محلّه -خفيةً- وجه برنار تيرو. تشابهت ملامح دالبوا بملامح بيير كازاس. نجحت في الاحتيال على هلعي بأن أخذت كتاب روجيه تيرو بين يدي.

وفي أقل من صفحة، ختم سرده بقصة عن مدينة «لاموات». تحرر المعسكر في أغسطس ١٩٤٢. واعتباراً من شهر سبتمبر، صدرت التهم ضد عدة آلاف من الفرنسيين المتعاونين مع العدو. ذكر روجيه تيرو أشهر الأسماء من تينوروس إلى ساشا جيتري، اللذين قاما بزيارة قصيرة لدرانسي في ظل هذه الظروف. باشروا العمل -عام ١٩٤٨- في استعادة المباني التي أعيدت إلى غاياتها الأولى. أشار الكاتب -في الملحق- إلى فيلم «جحيم الملائكة»، الذي صور في المدينة عام ١٩٣٦، وكان نجمه «مولوجي». انحصرت مساهمة الابن، برنار تيرو، في وضع خطة غامضة تغطي الفترة من ١٩٤٨ إلى ١٩٨٢.

غمرت الشمس الغرفة. اقتربت من النافذة. توالدت سحب سوداء مثقلة في الأفق، منذرة بالعاصفة. تمددت فوق غطاء سريري، ويداي تحت ذقني. ظللت هنا، فارغ الذهن، حتى الساعة الثامنة. ابتعلت قهوة سريعة الذوبان، وقررت الذهاب إلى القسم.

عندما وصلت، فوجئت بالرقيب لاردان يتسلق أثاثاً معدنياً يهتز تحت نعليه، كان ينزع خريطة شبكة طرق فرنسا الهائلة، طبعة ١٩٧١، والتي تغطي أغلب حائط المدخل.

- ماذا تفعل يا لاردان؟ ستحطم وجهك!

التفت نحوي، وغمغم برد ما. يستحيل التقاط أية كلمة.

- كلمني بوضوح. لا أفهم شيئاً...

رفع يداً إلى فمه، ولفظ نصف دسته من الدبابيس:

- أعطتنا إدارة التجهيزات الإقليمية خريطة هذا العام، فيها كل الطرق الجديدة، بل وعلامات الطرق السريعة، والمبرمجة حتى عام ١٩٨٥. سأتخلص من هذه الآثار القديمة.

توقفت لحظة قصيرة معجباً بمواهب الرقيب الحرفية. فرد الخريطة الجديدة، وضبطها على الحائط، وهو يغرس مسماراً دقيقاً كل عشرين سنتميتراً. وعندما فرغ من مهمته، نزل عن خزانة الملفات، وأتى ليقف بجواري ليحكم على عمله من المسافة الضرورية.

- لا مجال للمقارنة أيها المفتش، فهي تعطي بعض الألوان لهذا المكتب. أليس كذلك؟

لم أستطع نزع بصري عن علامات الطرق التى تشق فرنسا. لم يبخل الخطاط بالألوان. فقد أكد على أهم الطرق بخط أصفر يحيطه خطان متوازيان من البرتقالي الناصع.

– لاردان. تأمل قليلاً هذه الخريطة. ألا تلاحظ شيئاً بخصوص الطرق السريعة؟

تفرّس فيّ، وحيرته واضحة:

– لا. ثمة عدد لا بأس به... أتعتقد أنهم ارتكبوا غلطةً ما؟

– أنظر باهتمام. إنه شيء واضح رغم هذا. الآن، سنعيد التحقيق كله من البداية.

– أي تحقيق أيها المفتش؟

– لا يوجد ألف تحقيق يا لاردان. التحقيق الخاص بمقتل برنار تيرو. ستعيد استجواب كل نقط الشرطة الموجودة على الطريق السريع بين باريس وتولوز، ومحطات البنزين، ومطاعم الطرق، في الاتجاهين. لديك ما تقوم به.

– لكن، أيها المفتش، سيجيبونني بنفس إجابات الأسبوعين الماضيين؛ دون ذكر من لن تسعفهم ذاكرتهم... أو من سيطردونني بخشونة.

وقفت أسفل الخريطة. وبالمسطرة، تتبعت علامات برتقالية:

– من يحدثك عن استجواب نفس الأشخاص. لقد أخطأنا في الاتجاه المرة السابقة، ربما لم يأت عبر الطريق السريع أ –١٠، لكن عبر أ –٦...

– هذا جنون مطبق، يجب قطع ثلاثمائة علامة كيلومترية إضافية!

– ذلك ماتستطيع أن تؤديه يا لاردان. أريد تقريراً هذا المساء –بالتليفون –عبر الطريق حتى باريس. لا تنس شيئاً. تمشيط كامل! لا تتردد في الاتصال بي في أي وقت؛ هنا في المنزل. دع بوارسول يوقع أمر المهمة؟ وحظاً طيباً.

حياني لاردان. اندفعت نحو مديرية تولوز. ذكرت اسم ليكوسان إلى المضيفة التي تحظر الوصول إلى الأدوار العليا، فتركتني أمر. لوّح لي مدير الأرشيف بإشارات الصداقة ما إن رآني. قرر المجيء لمقابلتي وهو يعرج بعناء. أخذ يبذل –مع كل خطوة– جهداً لرفع قدمه المشوهة؛ في حين أن انزلاقة بسيطة من جهازه التعويضي –على الأرض الخشبية– تجنبه مزيداً من التعب، وتضع حداً لهذا الانطباع المؤلم الذي يثيره تأرجح العجزة عند من يراقبهم.

– سيدي المفتش. أنا سعيد برؤيتك مرة أخرى. أشياؤنا القديمة فاتنة. أليس كذلك؟

تركت له الوقت للوصول إليّ قبل أن أجيبه:

– نعم. لم أكن لأصدق ذلك أبداً. أحب أن ألقي نظرة جديدة على وثائق اليوم السابق، تلك التي اطلع عليها هذا الفتى المسكين.

– أتتقدم في عملك؟ إن لم يكن هذا تطفلاً..

– آه. مراجعة بسيطة. وأعتقد –أيضاً– أنه لديك –يومياً– بطاقة طلب من الأشخاص الذين يرغبون في الاطلاع على أعمالكم؟

– بالتأكيد. إنها قاعدة كل مكتبات فرنسا الإدارية. لم هذا السؤال أيها المفتش؟

– إنها فكرة المأمور ماتيبو. فنحن نتتبع رجلاً محالاً على المعاش، سبق وعرف برنار تيرو. أريد التأكد من وجود اسمه –بالصدفة– في إحدى بطاقات الطلب.

أبدى ليكوسان كثيراً من اللطف:

– يمكنني القيام بهذا الطلب، فهو عمل روتيني بالنسبة لي، لتتفرغ –بذلك– للملفات الأخرى.

– لا. لا فائدة. أشكرك. دلنّي على المكان الموجودة فيه هذه البطاقات.

– خلفك. في مكتب موظف الأرشيف المساعد. على أية حال، هذا عمل آلي. كل بطاقة قراءة مرقمّة ومصنفة حسب الترتيب الزمني.

– لا يوجد أي ترتيب أبجدي؟

– لا. هذا ليس له أية فائدة لنا. على أية حال، هذه البطاقات لا تفيد أبداً في شيء، لكّن القانون يجبرنا عليها.

أعطتني مساعد الأرشيف –وهي امرأة شابة يختفي وجهها خلف نظارات صدفية كبيرة– مجموعة العام الحالي. وبلا صعوبة، وجدت الورقة التي سجّل فيها برنار تيرو اسمه، وهدف البحث، ومراجع الملفات التي يرغب في الاطلاع عليها: «كافة ملفات العلامة DE».

ظللت فترة لابأس. بها أتصفح البطاقات، دون أن أجد اسماً يشبه بيير كازاس.

أعدت الملفات إلى موظفة الأرشيف. وتحت تأثير إلهام مفاجئ، طلبت منها إعطائي مجموعة ملفات عام ١٩٦١. فتحت المجلد –مضطربا– على شهر أكتوبر. شعرت بصدمة عنيفة أوقفت أنفاسي وأنا أقع على بطاقة ١٣ أكتوبر ١٩٦١، ملأها اسم روجيه تيرو.

أغلقت عيني. أعدت القراءة –مرة ثانية– في هدوء؛ حتى أثق من عدم وقوعي في الخطأ:

مديرية تولوز	
المكتبة الإدارية	
التاريخ: ١٣ -١٠- ١٩٦١	
اسم السائل	روجيه تيرو
الإقامة	باريس، الدائرة الثانية
موضوع البحث	شخصي.
طبيعة الوثائق المطلوب الاطلاع عليها	كل العلامة DE

أعدت الوثيقة إلى المرأة الشابة.

– وجدت حضرتك ما تبحث عنه؟

– نعم. أعتقد ذلك. شكراً.

وجدت رئيس القسم في انتظاري -عند ضلع القبة- وعلبة الوثائق تحت ذراعه.

– ها هي العلامة DE. هي -بالضبط- نفس أوراق زيارتك السابقة. ربما يكون حظك أفضل هذه المرة. ورجل الشرطة السابق هذا، هل وجدت أثراً له؟

– لا. أعتقد أن المأمور ماتبيو ضلّ الطريق.

فرشت محتويات العلبة فوق مائدة الاطلاع، وسحبت الملفات المختلفة. أستبعدت تقليم الأشجار، والتعويضات، والدفاع المدني، والتطهير، وأشياء أخري، لأركز انتباهي على عشرات الأجزاء المصنفة تحت «ترحيل».

اصطدمت -متقززاً- بمظاهر القبح الماكرة لإخطارات الأقسام هذه، والتي تبادلها الموظفون ليحسنوا من فاعلية آلة سحق الأجساد. أوضحت سلسلة من المراسلات مختلف مراحل ترحيل اليهود

من منطقة ميدي –بيرينيه. أولاً، خطاب من سكرتير «الشئون اليهودية» بمديرية تولوز، وموقَّعة بالأحرف الأولى فقط أ. ف.، يسأل فيها جان بوسجاني –وزير الداخلية– ما إذا كان يجب تنفيذ الأوامر الألمانية ؛ فهؤلاء يتأهبون لإرسال أطفال، تم ترحيل عائلاتهم إلى درانسي.

أجاب الوزير بنعم. فأصدر سكرتير الشئون اليهودية بتولوز تعليماته بتنفيذ البرنامج النازي.

أتاح سير الإدارة المحلية الممتاز –لهذه المنطقة– أن تحصل على المكانة الأولى في باريس في بطولة الرعب، وتتقدم باقي مقاطعات البلاد!

لم تذكر أية وثيقة اسم بيير كازاس، ولم أشعر بالاستعداد لفحص جديد. أعدت كل الملفات في العلبة. طرقت باب ليكوسان بلا أي رد. قمت بجولة بين الأرفف فلم أجده أو أسمع صوت تحركه الصدامي المميز. انتهى بي الأمر بالتوجه إلى معاونته.

– مدير الأرشيف لم يعد هنا؟

– لا. الأستاذ ليكوسان خرج منذ عشر دقائق. تريد منه شيئاً ما؟

– لا حاجة لذلك. فقط أشكريه –باسمي– على كل مساعداته.

فاجأتني بدايات المطر على درجات مدخل المديرية. تزايد عنف هبات الريح كل دقيقة، وأخذت تثير التراب الجاف المتراكم على الأرصفة ومجاري المياه. أسرعت بالعودة إلى القسم لأتجنب تجرع العاصفة الضخمة على ظهري.

أظلمت الدنيا رغم أن الساعة السادسة لم تكن قد حلت بعد: كدَّرت السماء سجادة من السحب الضخمة. كانوا قد أضاءوا مصابيح سقف قاعة الدوام ؛ فغطت أضواؤها الشاحبة الغرفة، وأحاطتها بأجواء كئيبة. فاجأني اتصال لاردان الهاتفي في مكتب ماتبيو وأنا أبحث عن دليل تليفونات تولوز.

– أيها المفتش، ربما تكون محقاً. أعتقد أننا توصلنا إلى شيء.

– من أين تتصل بي؟

– من سان رمبير دالبوا، على الطريق السرسع أ –٦، بين ليون وڤالانس. قطعت أكثر من خمسمائة وخمسين علامةً كيلومترية من تولوز! مكان جميل. تستطيع رؤية نهر الرون في الأسفل. وهو ليس بعيداً عن مون بيلا...

– ستقرأ لي نشرة نقابة السياحة، في سهرة لجنة المشروعات القادمة يا لاردان. ماذا حدث؟

– سأعرف ذلك غداً بالتأكيد... قابلت –لتوي– فريقاً من الكونستابلات يجوب الطريق السريع

بين ليون وآڤينيون طوال اليوم. تولي واحد منهم نوبتجيته خلال الليلة التي تلت مقتل برنار تيرو ؛ وقد عمل مع حارس آخر ؛ لذا يجب الانتظار غداً.

– وضّح كلامك. إنه أسوأ مما لو كان في فمك حفنة من الدبابيس!

– باختصار ، فرانسوا لاكونت، الكونستابل الذي نتحدث عنه، كان مشغولاً بمراجعة أوراق سائق شاحنة على مرتقع لوريزل، فوق مونتليمار، في الساعة الحادية عشرة وسبع وخمسين دقيقة بالضبط.

– ذاكرته حديدية!

– لا. لقد أظهر له بطاقات نائب الرئيس «vip»، والساعة مدوّنة في الدفتر... في هذه الفترة، أوقف زميل له سيارة رينو ٣٠ «تي. إكس» سوداء، تجاوزت سرعتها المائة وخمسين في الساعة.

– مسجّلة في باريس؟

– هذا ما استعلم عنه. على أية حال، يدعي السائق أنه يبدو من رجال السلطة المهمين ؛ وأظهر بطاقة ثلاثية الألون، على الأقل هذا ما يتذكره فرنسوا لاكونت، فقد كان يحرر مخالفة لزبونه...

– اسأل زميله، وبذلك نعجّل بالأمور.

– هذه هي –بالضبط– المشكلة. فهو في أجازة منذ بداية الأسبوع. وأنا أسعى للاتصال به. يبدو أنه يلعب دور الدون چوان في بريتاني، في مقطورة.

– نحن محظوظان! شاهدنا الوحيد في قلب الطبيعة، بلا تليفون...

– تريد أن أقوم بجولة في اتجاه برستْ أيها المفتش؟

– لا. استمر في استجواب الكونستابل، وحاول اختلاس عنوان صديقه منه. يبدو أننا استندنا على شيء حقيقي. وقعت الجريمة في الساعة السادسة، وقطع خمسمائة كيلو متراً منتصف الليل، أشعر بذلك. ما إن تنتهي من سان البير –دامبو...

– سان رامبير دالبون!

– كما تشاء. إذن. عندما ينتهي هذا، أسرع إلى باريس، وانتظرني في فندق. لن أتاخر في اللحاق بك.

– خذ الطريق السريع أ –١٠ أيها المفتش، فهو أكثر استقامة! مازلت لا أفهم –لو كان هو رجلنا حقاً– لماذا قطع طريق باريس –تولوز، جيئةً ذهاباً، متخذاً طريق الجنوب السريع، بدلاً من السير –بكل بساطة– عبر بوردو. لقد حسبتها: باريس –بوردو– تولوز– ذهاباً وعودة –تسجل ١٦٠٠ كيلو متر. بينما

طريق باريس –بوردو –تولوز– مونلييه– تولوز يتخطى الألفين ومائتي كيلو مترٍ! لم يقطع ستمائة كيلو متر إضافية حباً في جمال المناظر الطبيعية؟

– ليس لمون بيلا أية علاقة بهذه المسألة يا لاردان. على الأقل هذا ما أنا واثق منه!

– لماذا إذن؟

– لأنه –حتى الآن– هو الذي يضع قواعد اللعبة...

❖

اضطررت إلى إنهاء ملفات عاجلة متنوعة مطروحة على بساط البحث. قررت مغادرة مبنى القسم مع وصول نوبتجية الليل. ازدادت الحرارة ثقلاً، وحلت محل البرودة التي أتت بها عاصفة بعد الظهيرة. أخذت المياه –من شدة السخونة– تتبخر خلال ملامستها للطريق المرصوف بالظلط. ركد نوع من الطين المنفر على الأرض، اخترت السير حتى منزلي. درت حول كنيسة سان سيرنان لأغوص في اتجاه الجارون عبر شارع لوتمان. هدأ سيل السيارات والمشاة، الذين يستخدمون جسر سان –بيير، ساعات الذهاب والخروج من المكاتب. حاذيت النهر لأصل إلى حي القطالينيين حتى أتجنب الدوران حول ممر بريين.

وعلى ارتفاع شارع سيجورنيه، شعرت –لأول مرة– بحضور ما، مثل صدى متغير الإيقاع لحركتي الخاصة. سرت عشرة أمتارٍ إضافية لأقنع نفسي بطبيعة من يقتفي أثري. التفت خلفي فجأة، فاحصاً الأرصفة بشكلٍ متلاحق. ابتعد خيال عن ضوء المصباح، فلم أتمكن من تحديد ملامح مطاردي، التي أخفاها الضوء المعاكس. كان الرجل قصير القامة ويعتمد –بشكلٍ واضح– على قدمه اليمنى. صوب نحوي مسدساً داكن اللون. التقطت ماسورته بضعة أجزاء من الضوء. أدركت أن مصباحاً آخر موجود خلفي على بعد مترين، وأن عدوي يتبينني بنفس هذا الظل الخفيف. وببطء، وضعت ذراعي اليمنى على بطني وفككت أزرار سترتي بحرصٍ متناه. لم تثر محاولتي أي رد فعل ممن يصوب نحوي. لم يعد صعباً إدراك أنه يستخدم سلاحاً للمرة الأولى في حياته. تصلبت أعضاؤه، وتيبس عموده الفقري، بينما ظل محافظاً على سلاحه وذراعه ممدودة وموجهة نحوي.

من هذه المسافة، فرصته لا تزيد عن واحد من عشرة في إصابتي. فعليه ثني ركبيته، ولوي الكليتين، وثني ذراعه اليمنى، ثم التسديد نحو صدري مع تأمين ثبات وضعه بمساعدة يده الطليقة.

سألته حتى أحرفه عني أكثر:

– ماذا تريد؟ لو هي النقود، فأنا على استعداد لأن ألقي لك بمحفظتي...

– هذا لا يهمني أيها المفتش كادان. لست بحاجة للنقود. لم يكن ضرورياً النبش في كل مكان.

لا أريد...

كانت نبرات صوته مألوفة لي ؛ إلا أنني لم أستطع تحديدها بدقة. تكفّل الرجل بإنعاش ذاكرتي عندما أرجح قدمه المشوهة إلى الأمام.

– أنت مجنون يا ليكوسان. لن تخرج من هذا المأزق حياً. ابعد سلاحك، طالما لازالت هناك فرصة.

راح مدير الأرشيف يتقدم –دائماً– بخطواته المترنحة، ومسدسه مرفوع إلى الأمام.

أتيح لي تحرير مكبس طرف الخرطوشة. تركت نفسي أقع على الجانب الأيسر، ملتقطاً –أثناء سقوطي– إخمص «الهليكير». انزلقت سبابتي –لا شعورياً– على المغلاق، ونزعت رتاج السلاح قبل أن تستقر على الزناد.

أفرغت رصاصة مشط مسدسي الأولى وأنا ممدد على بلاط الرصيف الرطب ؛ بينما خرجت دفقة من الرصاص من قبضة ليكوسان. ضغطت عدة مرات على الزناد بلا تفكير وأنا ألهث. فقط الخوف من الموت هو الذي أمرني بإطلاق الرصاص. تهاوى ليكوسان بعد رصاصته الأولى وانزلق سلاحه في بركة ماء. نهضت لألتقطه. وبينما أوجهه نحو الضوء لطرد الانعكاسات، تبينت الكتابة المحفورة على الماسورة.

«ليما. جابيلوندو. ي. ڤيتوريا». نفس الموديل الذي استخدمه قاتل برنار.

كان ليكوسان قد كفّ عن الحياة، وقد حطمت رصاصتان من رصاصتي جمجمته، وانغرزت الثالثة في قدمة المشوهة ؛ بالضبط فوق عقبه. أصدرت تعليمات مشددة –لرئيس الموقع– بالمحافظة على سرية المعلومات طوال أربع وعشرين ساعة.

بدأ المارة –الذين أثار فضولهم صوت الفرقعات– في التّجمع. لكن ما من واحدٍ منهم جرؤ على الاقتراب مني. وإنني لأتساءل عما إذا كانت لدية الشجاعة الكافية.

وبينما كنت أبتعد، سمعت صفارة سيارة الإسعاف وقد امتزج صوتها بصوت سيارة شرطة النجدة. وفي الساعة الثانية عشرة والنصف مساءً، كان قطار الاكسبريس المتجه إلى باريس يغادر محطة ليون الرئيسية، وقد حصلت على مكان في عربات النوم. رحت في النوم قبل أن نعبر مونتوبان، وقد هدهدني شخير الرضا لمندوبين تجاريين.

❖

الفصل التاسع

خلدا إلى النوم مبكراً كالمعتاد. كانت نائمة في سكينة. راح ينظر إليها بحنان في الظلام الشفيف. لم يكف عن التقلب في السرير وقد ضايقته الأغطية، والحرارة الصاعدة من الفراش. تزايدت حساسيته الآن -أكثر من أي وقت مضى- لأقل حفيف في الحديقة، وأية طقطقة سلالم. ليس مرضه الذي يمنعه من الراحة، ولا آخر كشف أجراه طبيبه في بعد منتصف الظهيرة.

منذ وقتٍ طويلٍ وهو يعلم بخداعهم له عندما عثر -منذ عام بالضبط- على كتب الطب التي أخفتها زوجته في المخزن ؛ ثم لاحظ طريقتها في الاندفاع -بلهفةٍ- لقراءة أي مقال...

أدرك أن «قرحته» لا علاقة لها به إطلاقاً ؛ وأن الحيوان المقزز يلتهمه بشراهة من الداخل.

تظاهر بأنه لا يعرف شيئاً، وبتصديق أكذوبتهم. أخذوا يراعونه، ويختارون طعامه، ويمنعون عنه أي مجهود.

وهكذا، اختلسوا -عنوةً- عاماً من السعادة، تأجيلٍ لبضع عشرات من الأسابيع. الخلاصة ؛ الأبدية.

لا. إذا كان النوم لا يأتي، فالعلة تكمن في سببٍ آخر. في زيارة ذلك الشرطي الصغير القادم من تولوز، بكل ما أعادته من ذكرياتٍ وتقززٍ، وعارٍ. لم تعد تمر دقيقة دون التفكير فيها. أخذت الصور تتابع في ذاكرته، مأساوية وعاجزة عن استدعاء ما نفضله في الأوقات العادية: اللحظات الجميلة. نهض. وعلى الفور، أيقظت حركته المباغتة زوجته المنتبهة دائماً.

– أتشعر بألم؟ أتريد شيئاً؟ أي شراب؟

طمأنها وتوجه نحو التليفون في المدخل. أدار رقم قسم الشرطة الذي تركه له المفتش كادان. رفع عسكري الدوام السّماعة.

– أريد أن أتحدث مع المفتش كادان. الأمر مهم جداً.

– المفتش كادان ليس في تولوز. لقد سافر -على وجه السرعة- إلى باريس ؛ لأحد التحقيقات.

– أوه. غير معقول!... المغفل. كيف ألحق به؟ فندقه.

– آسف يا أستاذ.

وضع سماعة التليفون. فكرٌ لحظة، ثم ارتدى ملابسه بسرعة.

ومن علبة من الكارتون مخبأة فوق الدولاب، أزاح كرة الخرق المدهونة بالزيت وأخرج مسدساً «بروني» موديل ١٩٣٥ ؛ سلاحه المفضل. قذف المشط ليشحنه بطلقاته الثلاث عشر. أعاد تعشيق الأجزاء بضربة مقتضبة من راحة يده.

وقفت زوجته أمامه صامتة. من العبث التفوه بكلمة.

وما أن انتهى من فحص السلاح، حتى دسّه في جيب سترته، وتقدّم نحو الجراج.

استجابت المرسيدس –ذات اللون الأخضر المعدني– لأول ضربة من أداة المحرك دون أن يسحبه.

وبعد أقل من عشر دقائق، أنطلق بيير كازاس في الطريق السريع المؤدي إلى باريس، مصابيح سيارته مضاءة، والعداد ثابت على الرقم ١٨٠.

❖

الفصل العاشر

أخذ الرقيب لاردان يُكمل إفطاره في بار الفندق، ويحاول فك طلاسم الكلمات المتقاطعة بصحيفة «لوفيجارو». شاهدته يضع قطعة خبز مدهونة بالزبد، ويملأ عدة أسطر دفعةً واحدةً.

– صباح الخير يا لاردان. أنت من هواة الكلمات المتقاطعة أيضا! فلتذهب إلى الكازينو بين حين واخر، يبدو أنه يوحشك... .

انتفض عندما سمع صوتي.

– المفتش! الآن في باريس! لم أتوقع وصولك قبل الظهيرة. سافرت ليلاً... نمت؟

– نعم. وجدت سريراً في عربات النوم. حسناً. هذا الكونستابل، هل لحقت به؟

– نعم. مساء أمس حوالى الساعة الحادية عشر، في معسكر «ماريديك روز» في تريبوردن. توصلت إليه بالتليفون. الرينو «٣٠ت. إكس» مسجلة في باريس حقاً. يجب الاتصال بمكتب البطاقات الرمادية للحصول على اسم المالك...

– ألم يذكره لك؟

– لا. ما إن أوقفناه حتى أخرج بطاقة ثلاثية الألوان، وصاح محتجاً بأنه في مهمة. تركه الشرطي يُسرع. لكنه التقط الرقم آليا «٣٦٢٧ دي. أش. أ ٧٥».

– ممتاز يالاردان. سأتولى البحث عن اسم مالك السيارة. أما أنت، فأسرع إلى مدام تيرو، شارع نوتردام دي بون نوفيل، واسألها إن كانت تذكر رحلة قام بها زوجها إلى تولوز في أكتوبر ١٩٦١، قبل موته ببصعة أيام. ثم اذهب لتصحب كلودين شينيه من منزلها. انتظراني –بهدوءٍ– أنتما الاثنان في مقهى «دي باليه» على حافة السين ؛ بعد مديرية الأمن بقليل. سأكون هناك حوالي الثانية بعد الظهر!

أتاح لي طول الفترة الصباحية المرور على قسم البطاقات الرمادية ومعرفة اسم مالك الرينو، والعثور عليها، والحديث مع سائقها المعتاد.

ثم اتصلت بمسئول الشئون العامة بمديرية أمن تولوز، الذي رحبٌ بالأجابة على أسئلتي. ولأختم المسلسل، أخبرت دالبوا بقدومي إليه.

– أهلا كادان. هل أفادك خطابي في شيء؟ ليس سهلاً العثور على رجلك. فهم يحتفظون به سراً. أهو فعلاً؟!

– نعم. لقد قتل روجيه تيرو عام ٦١ تنفيذاً للأوامر. لكنني لا أعتقد أنه شارك في اغتيال ابنه. والحقيقة أنني قابلت رجلاً مريضاً على المعاش ؛ لا يأمل إلا في شيء واحد: أن يصبح منسياً. إلا إذا كان تمثيله أفضل مما أتصور...

– هذا محتمل جداً. رجلك الوديع –المحال على المعاش– تحرك بعد زيارتك. تلقيت الأصداء ممن اعطاني بطاقته. لا تثق –بالذات– في هذا النوع من الناس. فمن ينفذ عملاً كهذا، ليس صبياً برئيا! فاحذر الأشباح....

– ربما كان هذا صحيحاً. لكنني أراقبه. ومن حديثه، عرفت أشياءً لابأس بها. وإذا لم أكن مخدوعاً، فأنا أتتبع القاتل. لم يعد إلا جزء صغير جداً وتكتمل أجزاء «البازيل»(★) !

– وتعتقد في إمكانية العثور عليه هنا.. أأنا مخطئ؟

– لا. أنت محق. حسناً. يلزمني إثبات ما. لقد كونت وجهة نظري. لكنك تعرف ضرورة تقديم شيء ملموس... كل موظف في الشرطة تشرف عليه الإدارة، من يوم دخوله الخدمة حتى يوم إحالته على المعاش. ولي –مثلك– ملف يرفع –كل عام– ومعه تقرير من الرئيس الإداري. حسنا؟

– نعم. طبيعي. ولا أعرف طريقة أخرى لإدارة هيكل يتألف من مائة ألف رجلٍ ؛ وعن كَثَبْ.

– لا أنتقد النظام. كل مهنتنا تتلخص في هذه الوثيقة التي تُرسل إلى مدير المديرية في فترة الانتقالات. عندما وصلت إلى تولوز، كان ماتبيو مطلعاً على تصرفاتي السابقة وآراء رؤسائي السابقين. حسناً. آمل في الحصول على ملفٍ كهذا. ممكن؟

– ملفك الشخصي؟ لا. لا أستطيع. إنه في تولوز! هنا لا أستطيع الاقتراب إلا من بطاقات باريس.

– لا يهمني ملفي. إنني أعرفه أفضل من أي شخصٍ آخر! أريد الحصول على ملف موظف بمديرية أمن باريس.

– ذلك أفضل. سأبحث عن واحد من النقابين، ممن يهوون القاء نظرة متأنية على شئون العاملين...

– آه! تطبخ الأمور مع النقابين! إنه آخر ما كنت أتوقعه!

– باعتدال. فالعمل في المباحث العامة يتطلب توزيع العلاقات. بعضها مفاجآت غير متوقعة لكنها، على أية حال، مفيدة. ونقابات الشرطة متفردة إلى حد ما، خاصة مجموعة الأقليات. فمن يحصد أقل من عشرة في المائة من الأصوات في الانتخابات يبحثُ عن تأييدٍ، وما نستخلصه من ذلك: أنها لحظة

(★) Puzzle: ألغاز الصور المقطوعة.

التدخل. وإذا تضخموا، نستطيع –دائماً– أن نذكرهم ببعض العلاقات المزعجة إلى حد ما! كل شيء قابل للتفاوض، وخاصة الشرف. أعطني اسم صاحبك، وانتظرني في الممر. سأعطيك الملف خلال ساعة من الآن.

اكتفيت –في الغداء– بسندوتش «سوفلاكي»، اشتريته من صاحب كشك يوناني مزعوم. التهمت السندوتش، وأنا أسير في اتجاه جزيرة «لاسيتيه». البصل كثير جداً.

جلس الرقيب لاردان وكلودين شينيه يتحدثان –بهدوء– على رصيف مقهى «دي باليه». كانت كلودين ترتدي فستاناً، فرأيت –لأول مرة– ساقيها الناعمتين الذهبيتين. قامت عند اقترابي.

– ماذا يحدث أيها المفتش كادان؟ زميلك لا يريد أن يقول أي شيء. أهناك جديد؟

– نعم. هيا بنا.

دخلت فناء مديرية الأمن، يتبعني الرقيب لاردان وكلودين. وكانت سيارة مرسيدس لونها أخضر معدني تقف في ساحة الشرف. أشار لنا حاجب –يرتدي الزي الرسمي– إلى الباب «حـ» وهو يمد ذراعه نحو القبة؛ حيث وضع مكتب ومقعد في المدخل. اعترضنا الحاجب على عتبة سلم كبيرة.

– ماذا تريدون؟

تقدمت نحوه.

– نأمل في مقابلة السيد ڤيبو.

– السيد المدير مشغول في اجتماع. ألديكم موعد؟

أجبت بالنفي. مدَّ يده بسجل وبقلم حبر.

أبعدت السجل.

– لا نستطيع الانتظار. وصلت من تولوز خصيصاً للاجتماع به. ارفع سماعة التليفون، وقل للسيد ڤيبو أن المفتش كادان تحت، ويريد رؤيته في الحال.

نفَّذ المطلوب منه على مضض. أدار رقم الشئون الاجرامية. وعندما وضع السماعة، أحنى رأسه وقال بصوت مخنوق:

– سيد كادان. هذا مستحيل. حاول حضرتك العودة مرة أخرى، بعد الظهيرة أو غداً.

قررت تجاوزه. حاول الحاجب منعي، لكنني أبعدته بلا مجاملة. كانت الدرجات مغطاه بسجاد

سميك. أخذنا نرتقيها بلا صوت.

فاجأنا انفجار فرقعة جافة في اللحظة التي بلغنا فيها الطابق الثاني، حيث مكتب ڤيبو. وبشكل عفوي، أخرج لاردان سلاحه. بينما كان أول رد فعل لي هو إسقاط كلودين على الأرض. أخرجت -بدوري- مسدسي من جرابه. عندئذ، دوت طلقة ثانية خلف المكتب. اقتحم الطابق رجال الشرطة بزيهم الرسمي. وللحظة خاطفة، ظنوا أنهم يواجهون مجموعة من القتلة، فصوبوا أسلحتهم نحونا.

رفعت يداي.

– نحن زملاء. أنا المفتش كادان من تولوز. الطلقات من عند المدير!

أشرت إلى الغرفة وأنا أحرك سلاحي وفوهته مرفوعة في الهواء.

أخذ شرطيان وضع الاستعداد، بينما وقف آخرون أمام الباب. تهيأوا لتحطيمه، لكن مشروعهم لم يكتمل. فقد انفتح الباب ليمر منه رجل وجهه مهزوم تماماً، وكأنه مجروح داخلياً.

لمس لاردان كتفي:

– المتقاعد من «مونتوبان»!

ظل رجال الشرطة بلا حراك، وقد صدمهم ظهور هذا الشبح المأساوي.

دخلت مكتب ڤيبو الفسيح. وجدت مدير الشئون الاجرامية وقد كفَّ عن الحياة، وخيط من الدماء يسيل من صدغه، فيمتصه -على الفور- الموكيت الأزرق السميك. وبالقرب منه، رقد مسدس «بروني» موديل قديم، من مجموعة ما قبل الحرب.

عندما عدت إلى الممر، رسم بيير كازاس ابتسامة ألم.

– كان سيقتلك أيها الصغير... فقد اتفق عليه مُقدماً.

واقتادوه.

❖

فيما بعد، خلال تناولنا الطعام بمطعم تركي صغير. بالقرب من سنتيبي، أخذ لاردان وكلودين يحاصرانني بالأسئلة:

– لن نعرف أبداً ما إذا كان هو القاتل حقا. كيف خمنت هذا؟

– رغم أن هذا واضح... ڤيبو هو الذي قتل برنار تيرو في ٢٨ يوليو في تولوز، وأمر -أيضاً-

باغتيال والد برنار، في أكتوبر ١٩٦١، عندما كان رئيسياً للقوات الخاصة.

– هل أنت متأكد؟

– هذا بسيط. في ١٨ يوليو، اتصل ليكوسان مدير الأرشيف بمديرية تولوز، بڤييو ليخبره أن شاباً اسمه برنار تيرو طلب فحص وثائق مصنفة تحت العلامة DE، بالضبط كما حدث منذ خمسة وعشرين عاماً مع تيرو آخر...

قاطعتني كلودين:

– أتسمي هذا دليلاً؟ كيف تتأكد أن ليكوسان اتصل به؟ هو أيضا مات.

– قليل من الصبر. الاتصال التليفوني حدث فعلاً. ومديرية تولوز مزّودة بسنترال آلي يُصنف المكالمات ويجمعها حسب الأقسام: هذا السنترال مصمم بهدف التقشف في الميزانية، ليحد من استهلاك مكالمات كل موظف. ويتم تجميع اتصالات المدن على كاسيت. لكن الاتصالات بين المدن وبين الدول يتم عمل كشف جانبي بها. وبطلبٍ بسيط، يزودك النظام بقائمة المكالمات التابعة لهذا القسم أو ذاك. استخدم ليكوسان القسم ٢١٤. وقد سجّل شريط الإثبات مكالمة مع مديرية باريس في ١٨ يوليو الساعة ٨ و ٤٦ دقيقة صباحا. وإذا أردتما التأكد من حقيقة الأمر، اتصلا بترومبل، بالشئون العامة بمديرية أمن تولوز؛ وسيسره تأكيده لكما.

حرّك لاردان وكلودين رأسيهما في توافق جميل. واصلت الحديث:

– أعتقد أنه طلب من ليكوسان التخلص من برنار تيرو، لكن هذا رفض متذرعاً بإعاقته. أصبح ڤييو محاصراً، فلم يتردد لحظة واحدة. غادر مكتبه فوراً، فمكانته تعطيه الحق في هذا النوع من الامتياز. يكفي سؤال سكرتيرته أو الحاجب للتأكد من ذلك. ورغم هذا، أعترف أنه عبقري من نوع ما. فأي مجرم كان سيندفع نحو تولوز مستخدما أقصر الطرق، فنقبض عليه بسرعة، على الطريق السريع أ – ١٠ «باريس –بوردو– تولوز»! لكنه لعب بحذر. خمن أن أول ما سنفعله هو مراجعة كل نقط المرور، فخدعنا باختيار طريق تلاميذ المدارس، طريق «سولي» السريع. سياحة حقيقية: باريس –ليون– آڤينيون– كاركاسون– تولوز! ألف ومائة كيلو متر... وأنت يا لاردان اكتفيت بالدورة السياحية عبر بوردو في الاتجاهين، مستجوباً مديري مطاعم الطرق، ومحطات البنزين، وموظفي رسوم الطرق؛ عمل مجاني. اعتقدنا أننا نتتبع سيارةً وهميةً. فمن كان يشك في أن شخصاً أكثر دهاءً –من الجميع– سيقطع ثلاثمائة كيلومتر إضافية في الذهاب، ومثلها في العودة، ليخلط الأوراق. لقد أوشك على النجاح! لكن الإدارة الإقليمية لتجهيزات «جارون العليا» أعادتنا إلى الصواب دون قصد. وانتهم الفكرة الحسنة بتغيير خريطة حائطنا القديمة، وإرسال أخرى عليها علامات وامضة للطرق السريعة.

تألق وجه لاردان:

– قلت في نفسي هناك علاقة حقاً.

استأنفت:

– اجتاز ڤيبو الألف مائة كيلو متر وقد أوقف العداد. اكتفي –فقط– بملء الخزان عن آخره. وصل تولوز قبل الساعة السادسة. ركن العربة أمام المديرية وانتظر خروج برنار تيرو. كان ليكوسان قد رسم له صورة دقيقة لملامح برنار بالتليفون، وتصرّف بحيث يبقيه حتى المساء. وما إن ظهر الشاب، حتى تعقّبه واغتاله في أكثر اللحظات مناسبة، ثم عاد فوراً إلى باريس، ليثبت وجوده في المكتب منذ ساعات النهار الأولى. خسارة ؛ أفضل السيناريوهات لا تصمد أمام القدر ؛ والذي تجسد –هذه المرة– في صورة كونستابل ضواحي مونتيليمار.. في...

– سان –رمبار– دالبون.

– شكرا يا لاردان. في الساعة الحادية عشرة وسبع وخمسين دقيقة –بالضبط– من هذا المساء... زودنا الكونستابل بالرقم المسجل –رسمياً– للسيارة المعنية رينو «٣٠ تي. إكس». تحدثت طويلاً مع سائق ڤيبو في جراج المديرية... ومثل كل السائقين المحترفين، فهو حريص على حسن أداء آلته وعملها، خاصة وأنهم في حالة وقوع حادث يحمّلونه مسئوليته. لم تفته ملاحظة القفزة التي سجّلها عداد الكيلومترات خلال ليلة ١٨ – ١٩ يوليو. أكثر من ألفي علامة كيلو مترية. هذا واضح. إضافة إلى أنه قد وضع برنامجاً لعملية تفريغ يوم ٢١ : لقد سجلت السيارة... ٣٥ كيلو متر! لم يكن ڤيبو يتكلم معه أبداً، وإلا للاحظ أن رئيس الجاراج قد وبخه بسبب تجاوز الكيلومترات هذا.

ظلت كلودين صامته حتى ذلك الحين.

– غريبة. لكن موته لم يريحني حتى... اعتقدت أن اعتقال قاتل برنار سيسعدني...

دفعت ثمن الوجبات الثلاث. وعلى الرصيف همست لها –قبل أن تبتعد– ببضع كلمات:

– يمكننا تناول العشاء معاً هذا المساء ؛ لن أعود إلا صباح غد.

– مع الرقيب؟

– لا. هو يفضل الصحبة الإلكترونية. وينتظر –بفارغ الصبر– إصلاح دِشْ التليفزيون.

– اتفقنا. نلتقي الساعة الثامنة. مُرّ عليّ لتأخذني من المنزل. أتذكر العنوان؟

وهل لشرطي من معدني نسيان معلومة بهذه الأهمية!

❖

الفصل الحادي عشر

وجّه القاضي الاتهام إلى بيير كازاس في المساء، بعد الساعة السابعة بقليل. أصبح من المشكوك فيه أن يبقى على قيد الحياة حتى موعد نظر القضية. فرصة مناسبة لوأد الموضوع. أسرعت لألحق بكلودين شينيه. أتت لتفتح لي. لم تترك لي وقت لأتعرف على الحجرة التي دخلت فيها، التصقت بي ووضعت يديها خلف عنقي. انسابت راحتي يدي على طول ظهرها. قبلتها وعيني مغمضتان، ودفعت بالباب المطل على الممر برجلي اليمني. انفلتت مني بهدوء وأتت لتجلس على حافة السرير. نظرت إليها دون أن أجرؤ على الحركة. أخذت دموعها تسيل على خديها.

– لماذا تبكين؟ كل شيء انتهى. يجب النسيان.

– لا. ليس للسبب الذي تعتقده. أنا خجلة لأنني سعيدة رغم كل هذا. لا تستطيع أن تتخيل إلى أي حد شعرت بالوحدة؛ بأنني مهجورة، منذ ذلك اليوم... احتجت إلى الشعور بوجود شخص بجواري... أنت بالذات. يصعب الاعتراف بذلك، لكنني لا أريد اعتياد التعاسة، مثل والدة برنار.

ابتسمت، وقبلتني من جديد:

– انتهى؛ هيا. لن أبكي. أنظر؛ لقد اشتريت بعض الفاكهة. فراوله، وخوخ، تريد منهما؟

جلست فوق الغطاء، وأخذتها بين ذراعي.

– أنا أيضا شعرت بالرغبة منذ أول لقاء لنا.

– لن أحدثك عنه أبداً بعد ذلك؛ وعد. لكن اشرح لي لماذا حقد الرجل العجوز على برنار إلى هذا الحد وعلى والده. أحتاج إلى أن أفهم ذلك. ليس سراً؟

– لا. فالصحفيون سيستفيضون في الحديث عن الموضوع في كل الكتابات الباريسية! لم يحمل أندريه ڤيبو أية ضغينة ضد عائلة تيرو. لقد رأى برنار مرة واحدة في تولوز، بل أعتقد أنه لم يعرفه...

– كان مجنوناً إذن...

– لا. مجرد موظف بسيط. بدأ مهنته الإدارية عام ١٩٣٨ في تولوز. كان في العشرين من عمره –بالضبط– عندما انطلق لغزو قسم الشرطة مدججاً بالشهادات. وفي أقل من عام، تمت ترقيته سكرتيراً عاماً مساعداً مسئولاً عن القطاع الاجتماعي: إعانة العائلات المنكوبة. ثم رأس –عام ١٩٤٠– منظمة مساعدة النازحين، واستقبال الفرنسيين الهاربين من زحف القوات الألمانية. وفي عام ١٩٤١، وسّعوا من اختصاصاته في «شئون اللاجئين والمسائل اليهودية».

وباعتباره موظفاً مخلصاً، اتبع ڤييو تعليمات حكومة ڤيشي[1] ونظّم ترحيل العائلات اليهودية نحو مركز التجّمع في درانسي، ليس عن اقتناع سياسي، أو لأفكارٍ معادية للسامية، بل -ببساطة- امتثالاً للوائح، وتنفيذاً لنظام الرتب. وحالياً، يبت عشرات من «رؤساء الاقسام» الغامضين في أحجام الطماطم أو الخوخ المختلفة والتي سترسل للتفريغ بسبب فائض الانتاج. وبالنسبة لهم، ليس لآلآف الأطنان من الفاكهة، التي سينتهي أمرها بأن تسقى بالمازوت ؛ إلا مظهر وحيد، باعتبارها رقماً ورمزاً في قائمة، على الآلات الحاسبة. وفي عام ٤٢ -١٩٤٣، لم يفعل ڤييو شيئاً آخر سوى تغذية آلة الموت النازية، فصفى مئات من الكائنات البشرية، بدلاً من إدارة فائض البضائع المخزونة. لقد عمل ليكوسان معه في السكرتارية الإدارية. فريق رهيب. فالمناطق التي تحملوا مسئوليتها تصدرت كافة المناطق الفرنسية في عمليات ترحيل الأطفال اليهود... في أقسام الشرطة الأخرى، حاولوا خلط الأوراق وتضليل شرطة الجستابو. لكن، ليس في تولوز. ذهب ڤييو إلى أبعد من رغباتهم، لانشغاله بأن يصبح كفئا. مذبحة كهذه لا يمكن أن تحدث مالم يستفد النازيون من تواطؤ عديد من الفرنسيين. لقد تعرضوا لأطفال يقل عمرهم عن عامين، رغم أن نصوص الماريشال بيتان[2] توكد على ضرورة مراعاتهم..

- لكن والد برنار كان طفلاً في هذه الفترة، وليس باستطاعته التدخل في كل هذا.

- ولد روجيه تيرو في درانسي، وهذا هو الرابط، وهو كافٍ. فكيّ يُشغل أوقات فراغه، أخذ يكتب دراسة صغيرة عن مسقط رأسه. تعرفين الكتيب الذي عهدت به إليّ ؛ فعدا «كُرات دي بالوييل»، لم يكن في درانسي شيء يثير الاهتمام، إلى أن أقيمت معسكرات الاعتقال فيها، فكانت سبباً في شهرتها الكئيبة، بالإضافة إلى مشروع المعماريين الأساسي عن بناء مدينة مستقبلية فيها. اطلع روجيه تيرو على مئات من وثائق المعماريين، والإحصاءات، وقوائم الأسماء. ثم لاحظ -ذات يومٍ- العدد المتفاوت من الأطفال، والذين تم ترحيلهم من منطقة تولوز. وباعتباره مؤرخاً، كان من المنطقي أن يتمسك بفهم سبب هذا التفاوت فربما كانت هناك طائفة يهودية هامة، أو مركز ترحيل داخل المنطقة... ذهب روجيه تيرو إلى تولوز، إلى الكابيتول أولا ثم إلى المديرية. وسرعان ما أدرك، وهو يدرس تفاصيل الوثائق المصنفة تحت العلامة DE، أن مسئولية تضخم حصة الأطفال تعود إلى موظف تولوزى كبير، مسئول عن «الشئون اليهودية»، يعرف بأحرفه الأولى فقط «أ .ف». عاد إلى باريس وقد قرر -كما هو مرجّح- البحث عن هوية هذا المجهول. ولسوء حظه، علم ليكوسان -الذي كان يشغل وظيفة رئيس الأرشيف- بزيارته، وبموضوع أبحاثه، فأخبر ڤييو -فوراً- بأن مؤرخاً يهتم -عن قرب أكثر مما يجب- بالوثائق الخطرة.

قاطعتني كلودين:

- ولكن، ألم تجر تحقيقات -بعد التحرير- لتحديد مسئولية كل واحدٍ؟

(١) حكومة ڤيشي هي الحكومة الفرنسية التي تواطأت مع الاحتلال الألماني.

(٢) الماريشال بيتان: القائد والحاكم العسكري لحكومة ڤيشي الموالية للألمان.

– بلى. بالتأكيد. ڤيبو وليكوسان ليسا أحمقين. أثبتا ذلك بأن ظلاً غير مشكوك فيهما طوال أكثر من أربعين عاما. فقد شعرا –في بداية ١٩٤٤– أن لحظات التعاون الكبرى على وشك الانتهاء، وسرعان ما سيكون عليهما تقديم كشف حساباتهما. ابتعدا عن ڤيشي، وكرسا جهودهما لمساعدة شبكات المقاومة، بأوضح الطرق. ومع التحرير، منح ڤيبو وساماً لشجاعته!

لم يسمح أحد لنفسه بالتشكيك في مزايا بطل يتباهي بالوردة التي وضعها على الوجه الآخر من معطفه. ومنذ هذه الفترة، لم يكف ڤيبو من ارتقاء الدرجات: سكرتيراً عاما لمديرية بوردو عام ١٩٤٧ ؛ رئيس مكتب رئيس مديرية باريس عام ١٩٥٨. وخلال عام ١٩٦٠، عهدوا إليه بمهمة سرية: تكوين فريق مكّلف بتصفية أنشطة المسئولين في جبهة التحرير الشعبية. وامتدت نشاطاته إلى منظمة الجيش السري عام ١٩٦١.

أخذت حبة مشمش من طبق الفاكهة وأكملت:

– عندما أخطره ليكوسان –عام ١٩٦١– بالأبحاث التي يقوم بها روجيه تيرو، والد برنار، استخدم ڤيبو –بطبيعة الحال– قدرات واحد من رجاله: بيير كازاس. وأغفل طبعاً كشف السبب الحقيقي لإعدام روجيه تيرو. ظل الشرطي مقتنعاً –حتى الأسبوع الماضي– بأنه وضع حداً لنشاط إرهابي خطير. وكمحترف كفء، استفاد بيير كازاس من اضطرابات ١٦ أكتوبر، والمظاهر الجزائرية، لينفذ الاتفاق. وعندما أراد برنار إنهاء كتاب والده، وصل إلى نفس النتائج عن ترحيل الأطفال، فأراد مراجعة المصادر. والنتيجة أنه تعرض لمصير والده. ولكن –هذه المرة– على يد ڤيبو نفسه. بعد والده بعشرين عاماً...

– أتعتقد أن كل هذه الحكاية ستنشر في الصحف؟

لم أستطع إجابتها بأنه سبق إصدار الأمر لي –بوضوح– بالتخفيف من وقع الأحداث. وفي الوزارة، طبخوا سيناريو أكثر مطابقة للفكرة التي يجب أن يكّونها المواطنون عن حماة النظام العام.

– ربما لا يكشفون كل شيء، ولكنهم سيضطرون إلى السماح بجزءٍ هام.

انحنت كلودين وتكورت في صدري. توقفت عن الكلام. أخذت أداعب شعرها، وأنا أتأرجح يميناً ويساراً، وكأنني أهدهدها وأهدئ من روعها. وبعد ذلك بكثير، أخذني النوم على حين غفلة، وقد طوقتني رائحة بشرتها.

❖

الخاتمة

عاد لاردان إلى تولوز بدوني، بينما منحت نفسي يوم راحة. خرجنا أنا وكلودين لأخذ حقيبتي من الفندق. وعلى بعد خطوات منه، كانوا يجددون محطة بون نوڤيل. انهمك نحو عشرةٍ رجال -يتسلقون السقالات- في نزع طبقات الملصقات المتعاقبة التي تغطي لوحات الاعلان. وبعيدا، في طرف الميناء، أخذ عاملان آخران يكشطان مربعات السيراميك بأداة معدنية.

كشفت الأوراق -وهي تنتزع -عن إعلانات قديمة ألصقت منذ عشرة أعوامٍ أو عشرين.

انهمك اثنان من «البانك» -شعرهما حليق وملّون- في تبادلات القبلات تحت إعلان «ساڤينياك»، الذي يتباهى بمزايا زيت «كالڤيه»، الزيت الدهني الخفيف والنباتي مائة في المائة..

وراح موظف إداري شاب -بحقيبة أوراق صغيرة في يده و«ووكمان» على أذنيه، يتسكع أمام شعار يتغنى بنوع من المياه المعدنية و«بادادي... وبادادا»(★).

توقفت كلودين أمام ركنٍ بالحائط. أشارت إلى مربعٍ من السيراميك تغطي نصفه قطعة ورق صفراء تقاوم جهود عاملٍ جزائري. لم يظهر سوى جزء من النص، لكن دون أن يؤثر ذلك في المعنى:

« ... ممنوع في فرنسا.. الـ ... سيتعرضون للإعدا ... محاكمة عرفـ... مانية... شخص يحمل... رعايا يهو... عقاب يصل إلى حد المو... عناصر غير مسئو... في تأييد أعداء ألمانيا...

... تحذّر... مذنبين هم أنفسهم وسكان الأراضي المحتلة.

توقيع الحاكم العسكري

ستون بناجيل»

أوبرڤيلييه

يناير -فبراير ١٩٨٣

❖

(★) لحن نغمة مشهورة في ذلك الوقت.

المحتويات

❖